نجود علي بالاشتراك مع دلفين مينوي

أنا نجود ابنة العاشرة ومطلّقة

القصة الحقيقية لأصغر زوجة يمنية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نجود علي

بالإشتراك مع دلفين مينوي

أنا نجود
إبنة العاشرة ومطلّقة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Copyright © All Prints Distributors & Publishers
جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠
ISBN: 978-9953-88-580-3
Copyright © Michel Lafon Publishing, 2009
Originally Published as: **Moi, Nojoud, 10 ans divorcée**

نشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة الفرنسية - المركز الدولي للكتاب
"Ouvrage publié avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre National du livre"
ترجمة: أنطوان باسيل
تدقيق لغوي: وفيق زيتون
تصميم الغلاف: PROMOFIX
الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

نجود بطلة معاصرة ٧
١ - في المحكمة ١١
٢ - خارجي ٢١
٣ - عند القاضي ٣٩
٤ - الزواج ٤٧
٥ - شدا ٧٧
٦ - الهروب ٨٧
٧ - الطلاق ١٠٧
٨ - عيد الميلاد ١٢١
٩ - منى ١٢٩
١٠ - عودة فارس ١٤١
١١ - عندما سأصبح محامية ١٥٣
الخاتمة ١٦٩
شكر ١٧٧

نجود بطلة معاصرة

كان يا ما كان بلاد سحرية أساطيرها مذهلة، مثل منازلها الشبيهة بقطع الكعك بالزنجبيل، والمزيّنة بخطوط صغيرة دقيقة أشبه بخطوط السكّر الناعم. بلاد تقع عند الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، على تماس مع البحر الأحمر والمحيط الهندي. بلاد عركها التاريخ، ذات أبراج طينية صغيرة تجثم على قمم الجبال المنثنية. بلاد تتضوّع منها ببهجة رائحة البخور عند انعطافات الأزقة المرصوفة بالحجارة.

وكان أنّ الأناس العظماء، قرروا منذ زمن بعيد جداً، تسميتها العربية السعيدة Arabia Felix.

يدفع اليمن إلى الحلم. إنه مملكة ملكة سبأ، المرأة الفائقة الجمال والصلبة العود التي أحرقت قلب الملك سليمان، والتي يمكن اقتفاء أثرها في كتابي التوراة والقرآن المقدسين. إنها بقاع غامضة لا يخرج فيها الرجال أبداً من دون خناجرهم المعكوفة، المعلّقة بفخر على أحزمتهم، وتخفي فيها النساء جمالهن وراء أحجبة سميكة سوداء. إنه بلد يقع على الطريق التجارية القديمة التي سلكتها قوافل تجّار الطيوب، والتوابل، والأقمشة. كانت

سفراتهم تستغرق أسابيع، بل وأشهراً أحيانا. لا يوقفهم أبداً لا مطر ولا ريح. بل ويُحكى أن الأقل قدرة على المقاومة لم يعودوا أبداً إلى ديارهم.

يجب، لتصوير اليمن، تخيّل قطاع من الأرض أكبر بقليل من اليونان والنيبال وسوريا مجتمعة في كتلة واحدة، يدسّ أنفه في خليج عدن. فهناك، في تلك المياه المضطربة، يتربّص القراصنة القادمون من بلاد مختلفة في المجاري الكبرى بالشحنات العابرة بين الهند وأفريقيا وأميركا وأوروبا...

لم يتمكّن الكثيرون من الفاتحين، على مرّ العصور، من مقاومة إغراء الاستيلاء على هذا البلد الجميل. فقد نزل فيه الأثيوبيون متسلّحين بالقوس والنشّاب، غير أنهم طُردوا منه سريعاً. وجاء من بعدهم الفرس، بحواجب أعينهم الكثيفة، وشيّدوا القنوات والقلاع وجنّدوا بعض القبائل لمحاربة غزاة آخرين. ثم جرّب البرتغاليون فيه حظوظهم وأنشأوا فيه وكالات تجارية. وحلّ محلهم العثمانيون واستولوا على البلاد لأكثر من مئة عام. بعد ذلك بفترة كبيرة رسا البريطانيون ذوو البشرة البيضاء في الجنوب، في عدن، فيما تمركز الأتراك في الشمال. وما إن خرج البريطانيون حتى اهتم الروس، ذوو الدم البارد، بدورهم بالجنوب. وانشقّت البلاد تدريجياً إلى شطرين أشبه بكعكة يتنازع عليها أولاد كثيرو الشراهة.

تروي الشخصيات الكبيرة أن السبب في هذا الطمع الكبير الدائم بالعربية السعيدة هو في أنها تخفي ألف كنز وكنز. فنفطها

يسيل له لعاب الأجانب، وعسلها يساوي ذهباً. موسيقاها أخّاذة، وقصائدها لطيفة ومرهفة. ومطبخها المطيّب بالأفاويه لذيذ على غير شبع. وتستجلب هندسة آثارها علماء آثار العالم بأسره.

مضت سنوات وسنوات الآن على رحيل الغزاة. غير أن اليمن عرف منذ رحيلهم، في سلسلة من الحروب الأهلية الشديدة التعقيد على كتب الأطفال. وبالرغم من توحيده في عام ١٩٩٠، فإنه لا يزال يعاني من الجروح التي خلفتها فيه هذه النزاعات المتعددة.

يوجد على رأس السلطة رئيس غالباً ما تزيّن صورته واجهات الحوانيت لكن في القرى، يمتلك رؤساء القبائل، الذين يغطّون رؤوسهم بالعمامات، سلطة قوية على مبيعات الأسلحة والزواج وزراعة القات[١] بل ويبدو أنه يمكن لهم أن يغضبوا كثيراً جداً إذا رفض أحدهم الاستماع إليهم. وهناك أيضا تلك الانفجارات في أحياء صنعاء الراقية حيث يقيم ممثلو الدول الاجنبية الذين يقودون سيارات ضخمة زجاجها أسود. ومن ثم يوجد قانون يسود المنازل، وهو قانون الآباء والأشقاء الكبار...

في هذه البلاد، العجيبة والمضطربة في آن، أبصرت النور فتاة تدعى نجود منذ ما لا يزيد عن عشرة أعوام.

---

(١) القات الذي يتم استهلاكه وفقاً لطقس اجتماعي موروث عن الأجداد، هو عشبة تُشعر بالنشوة وتسمح بنسيان الجوع والتعب. وهو ممنوع في عدد كبير من البلدان حيث يُصنّف في قائمة المخدرات، غير أنه يُباع بحرّية في اليمن، بل إنه يشكّل النتاج الزراعي الأساسي في البلاد.

نجود، التي لا تزيد قامتها على ثلاث تفاحات، ليست لا ملكة ولا أميرة. هي فتاة عادية، لها أهل وعدد كبير من الأشقاء والشقيقات الصغار. وهي، مثل كل أولاد عمرها، تعشق لعب الغميضة ومولعة بالشوكولا. تحب القيام بالرسوم الملونة، وتحلم بأن تشبه سلحفاة الماء لأنها لم ترَ البحر أبداً. وعندما تبتسم تتشكّل غمّازة صغيرة على خدها الأيسر.

غير أن هذه النظرة الجميلة والساخرة امّحت فجأة وراء دموع كثيرة في إحدى أمسيات شباط/فبراير ٢٠٠٨ الباردة والمكفهرّة عندما أعلن والدها أنه سيزوّجها إلى رجل يكبرها بثلاث مرات. بدا كما لو الأرض بأكملها انهارت على كتفيها. زُوّجت على عجل بعد ذلك بأيام، فقررت الفتاة الصغيرة استجماع ما تبقى لها من قوة، في محاولة منها لقلب قدرها المشؤوم...

دلفين مينوي

١

في المحكمة

٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٨

شعرت بالدوار، لأنه لم يسبق لي، طوال حياتي، أن شاهدت هذا الكم من الناس. الحشد في الفناء المؤدي إلى المبنى الرئيسي للمحكمة يتحرّك في كلّ الاتجاهات. رجال بالبذة وربطة العنق، وكومات من الملفات التي أصابها الاصفرار محشورة تحت أذرعتهم. وآخرون يرتدون الزنّة، الجلباب التقليدي الطويل الذي يرتديه الناس في قرى شمال اليمن. وهناك جمع من النساء اللواتي يصحن ويبكين في جلبة غير مفهومة. أودّ لو أمكنني أن أقرأ على شفاههن ما يحاولن قوله، غير أن نُقُبَهنّ المنسجمة مع أثوابهن الطويلة السوداء لا تُظهر من وجوههن سوى أعينهن المستديرة يبدو عليهن الغضب، كما لو أن إعصاراً اقتلع منازلهن للتو.

أصغيت فلم يمكنني سوى التقاط بضع كلمات من أحاديثهن: «حضانة الاطفال»، «العدالة»، «حقوق الإنسان»...

ولم أفقه كثيراً ما يعنيه ذلك. وإلى جانبي عملاق عريض الكتفين، عمامته ملتصقة إلى صدغيه، يحمل بيده حقيبة بلاستيكية مملوءة بالوثائق، ويروي لمن يريد أن يسمع أنه جاء في محاولة لاستعادة أرضٍ سُرقت منه. آخ! لقد أوشك هذا العملاق أن يرتطم بي بقوة لشدة ما كان يركض أشبه بأرنب فقد الاتجاه.

يا للفوضى! ذكّرني هذا بساحة القاع، ساحة العمال العاطلين عن العمل في قلب صنعاء، التي غالباً ما يتحدّث أبي عنها. كل واحد مهتم بنفسه، وكيف يمكنه أن ينتزع عملاً للنهار منذ ظهور أشعة الشمس الأولى بُعيد آذان الفجر. لقد ضرب الجوع بهؤلاء الناس إلى حد أن تحوّل قلبهم إلى حجر. فلا وقت للإشفاق على مصير الآخرين. وأنا أودّ، مع ذلك، لو أن أحداً يمسك بيدي، أو يرمقني بنظرة شفقة، ليتم سماعي، ولو لمرّة! وأنا في الواقع كما لو أنني غير مرئية. لا يراني أحد. أنا صغيرة جداً بالنسبة إليهم. لا أصل إلا إلى خاصرتهم. فأنا لست إلا في العاشرة، وربما أصغر، من يدري؟

كوّنتُ فكرة مختلفة عن المحكمة، بأنها مكان هادئ ونظيف، وأنها المقر الكبير للخير في مواجهة الشر، حيث يمكن حلّ كل مشاكل الأرض. سبق لي أن شاهدت محاكم مع قضاة بأردية طويلة على التلفاز عند الجيران. يُقال إنهم الذين يمكنهم مساعدة ذوي الحاجة. وعليّ أن أعثر على واحد أروي له قصتي. فأنا منهكة، وأشعر بالحر تحت نقابي. أنا خجلة ورأسي

يؤلمني. أبقيتْ لي القدرة على الاستمرار؟ كلا. نعم. ربما. مرّ الأكثر قساوة، وعليّ أن أتقدّم.

تعهّدت لنفسي، وأنا أغادر منزل أهلي هذا الصباح، بألا أعود إليه قبل حصولي على ما أريد. كانت الساعة العاشرة بالضبط.

- اذهبي واشتري الخبز للفطور. قالت أمي وهي تناولني ١٥٠ ريالاً[١].

وبحركة لاشعورية، عقدت شعري البني المجعّد الطويل تحت وشاحي الأسود وغطيّت جسمي بمعطف متناسق (لباس النساء اليمنيات لدى خروجهن إلى الشارع). سرت بضعة أمتار وأنا أرتجف كلّيا، ثم تلقّفت أول ميني باص يمرّ على الجادة الكبيرة التي تؤدي إلى وسط المدينة. نزلت في المحطة. تغلّبت على خوفي وأنا أركب للمرة الأولى في حياتي التاكسي الأصفر.

لا نهاية للانتظار في الفناء. إلى من أتوجّه؟ لاحظت فجأة وسط الحشد، بعض النظرات المغرية غير المتوقعة. فهناك، على مقربة من الدرج الذي يفضي إلى مدخل المبنى الاسمنتي الأبيض الكبير، ثلاثة صبية ينتعلون صنادل بلاستيكية يتفحصونني من

(١) يوازي مبلغ ١٥٠ ريالاً حوالى ستين سنتيماً من اليورو (اليورو الواحد يوازي ٢٥٨ ريالاً يمنياً).

رأسي إلى أخمص قدمي. اسودّت وجوههم من الغبار، وذكّروني بأشقائي الصغار.

- إعرفي وزنكِ في مقابل عشرة ريالات! صاح بي أحدهم وهو يقدّم ميزاناً قديماً مبعوجاً.

- شاي لتروي عطشك! عرض عليّ آخر وهو يلوّح بسلّة صغيرة ملأى بالأكواب المدخنة.

- عصير جزر طازج؟ اقترح الثالث وهو يقذفني بأجمل ابتسامة، ويمد يده اليمنى أملاً منه في أن يحصد بها قطعة نقدية.

لا، شكراً، أنا لست عطشى، ولا يهمني بصراحة ان أعرف وزني! لو أنهم يعرفون وحسب بالذي حملني إلى هنا...

رفعت رأسي من جديد، وقد أعيتني الحيلة، في اتجاه أوجه هؤلاء الكبار الذين يتحرّكون من حولي. فالنساء يتشابهن جميعهن بنقبهن الطويلة. أية ورطة أقحمت نفسي فيها؟ وعن بعد لمحت رجلاً بقميص أبيض وبذّة سوداء يسير في اتجاهي. لعلّه أحد القضاة... أو أحد المحامين؟ لم يعد أمامي سوى أن أجرّب حظّي.

- أعذرني، يا سيّد، أريد أن أقابل القاضي!

- القاضي؟ من هناك، بعد الدرج. أجابني وهو بالكاد ينظر إليّ قبل أن يختفي من جديد وسط الحشد.

لم يعد أمامي من خيار. عليّ أن أواجه ذلك الدرج الذي بات الآن في مقابلتي. إنها فرصتي الوحيدة والأخيرة للتخلّص من ورطتي. شعرت بأنني متسخة، ويجب عليّ أن أتسلّق هذه الدرجات، الواحدة تلك الأخرى، لأذهب وأخبر قصتي، وأن أجتاز هذا المد البشري الذي يتضخّم كلّما اقتربتُ من بهو المدخل. كدت أسقط، فتمالكت نفسي. وجفّت عيناي من كثرة البكاء، ووهنت عزيمتي. وأحسست بثقل رجليّ ما إن وطأتا، أخيراً، الأرضية الرخامية. لا يجب أن أتداعى. ليس الآن.

لاحظت على الجدران البيضاء، كما على جدران المستشفيات، كتابات بالأحرف العربية. ولم أتمكن من قراءتها بالرغم مما بذلته من جهد. لقد أُجبرت على وقف الدراسة في السنة الثانية، تماماً قبل أن تتحول حياتي إلى كابوس، ولا أعرف أن أكتب الكثير بخلاف اسمي، نجود. شعرت بالضيق الشديد. ووقع نظري في النهاية على مجموعة من الرجال بالبذة الرسمية الخضراء الزيتونية والقبعات العسكرية مثبتة على رؤوسهم. أنهم بالتأكيد من الشرطة. أو أنهم من الجنود؟ علّق أحدهم كلاشينكوفه ورباً على الصدر.

ارتعدتُ لأنه يُحتمل، إذا رأوني، أن يوقفوني. فأن تهرب فتاة صغيرة من منزلها، أمر غير مقبول. تعلّقت بحذر، وأنا أرتعد، بأول حجاب يمرّ، وأنا آمل في أن ألفت انتباه المجهولة التي تختبئ تحته. «هيا يا نجود» أمرني صوت داخلي صغير.

«أنت فتاة، هذا صحيح. ولكنك أيضاً امرأة! امرأة حقيقية، ولو أنك لا تزالين تلاقين صعوبة في قبول ذلك».

«أريد التحدّث إلى القاضي».

حدّقت بي بدهشة عينان سوداوان كبيرتان محاطتان بالأسود. لم ترني المرأة الواقفة قبالتي وأنا أصل.

- ماذا؟

- أريد التحدّث إلى القاضي!

هل تقصدّتْ عدم الفهم، لكي تتجاهلني بسهولة أكبر على غرار الآخرين؟

- عن أي قاضٍ تبحثين؟

- أريد التحدّث إلى قاضٍ، وحسب!

- لكن يوجد الكثيرون من القضاة في هذه المحكمة...

- خذيني إلى قاضٍ، أي قاضٍ!

صمتتْ وقد أدهشها تصميمي. إلا إذا كانت صرختي الصغيرة والحادة هي التي سمّرتها في أرضها.

أنا قروية بسيطة تعيش في المدينة. وقد انصعت دائماً لأوامر رجال العائلة. تعلّمت دائماً أن أقول «نعم» لكل شيء. واليوم قرّرت أن أقول «لا» وأنا مُلطّخة من داخل، كما لو أنه تم اغتصاب جزء من ذاتي. لا يحق لأحد منعي من الحصول على

موعد مع العدالة. إنها فرصتي الأخيرة، ولن استسلم بهذه السهولة. ليست هذه النظرة المندهشة، الباردة برودة رخام البهو حيث أخذ صدى صيحتي يتردّد بطريقة غريبة، هي التي ستسكتني. مرّ الظهر، ومضت ثلاث ساعات وأنا تائهة يائسة في متاهة هذه المحكمة. أريد أن أرى القاضي!

- اتبعيني! قالت وهي تشير عليّ أن أتعقّب خطاها.

فُتح الباب على قاعة خافتة، أرضها مفروشة بـ«موكيت» بنية، وهي ملأى بالناس. وفي أقصاها، من خلف المكتب، انشغل رجل له شاربان ذو وجه دقيق في الرد على طوفان من أسئلة تنهال عليه من كل الاتجاهات. إنه القاضي! أخيراً! الجو صاخب ولكنه مطمْئن. أحسست أنني في أمان. تعرّفت على الجدار الرئيسي، إلى الصورة المؤطّرة لـ«عم علي». هكذا تعلّمت في المدرسة أن أتحدّث عن رئيس بلادي، علي عبدالله صالح المنتخب منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

أخذت مكاني، كالآخرين، على واحدة من الأرائك الكستنائية المصفوفة على طول الحائط. في الخارج، دعا المؤذن[1] إلى صلاة الظهر. لمحت من حولي وجوهاً مألوفة، أو بالأحرى عيوناً مألوفة، التقيتها سابقاً في الباحة. انحنى بعض

(١) المؤذن هو الشخص المكلف بالدعوة إلى الصلاة، في الغالب من أعلى الجامع، خمس مرات على الأقل في اليوم.

الوجوه بغرابة نحوي. عجباً، لقد تم أخيراً الإدراك بأنني موجودة! آن الأوان لذلك. تشجّعت، وأسندت رأسي إلى ظهر المقعد وانتظرت دوري بصبر.

قلت في نفسي: إذا كان الله موجوداً فليأتِ وينقذني. وأنا طالما أديت صلواتي، خمس مرات في اليوم، وساعدت أمي وشقيقاتي دائماً في تحضير الأطباق خلال العيد في نهاية شهر رمضان. ليرحمني الله... تدافعت في رأسي صور ضبابية. أنا أسبح في الماء. البحر هادئ، ثم يأخذ في الاضطراب. أرى شقيقي فارس في البعيد ولا أتمكن من بلوغه. أناديه فلا يسمعني. أخذت عندها أصرخ باسمه، غير أن عصف الهواء دفعني إلى الوراء في اتجاه الخليج الصغير. قاومتُ وأنا أحرّك ذراعيّ كالمراوح، فلا مجال لأن أسمح بإعادتي إلى نقطة الانطلاق. الأمواج تزمجر باطراد، وأصبح الخليج الصغير قريباً جداً الآن. اختفى فارس عن ناظري. النجدة! لا أريد العودة إلى خارجي، كلا لا أريد العودة إليها!

- ما الذي يمكنني عمله من أجلك؟

صوت ذكوري أخرجني من إغفاءتي. صوت رخيم في شكل غير مألوف. لا حاجة لأن يرتفع ليجذب انتباهي. اكتفى بهمس بضع كلمات: «ما الذي يمكنني فعله من أجلك»... أخيراً هناك من يهب لنجدتي. فركت وجهي، وها أنا أتعرّف على القاضي ذي الشوارب يقف منتصباً قبالتي. تبدّد الحشد، واختفت

الأعين، وباتت القاعة شبه خالية. وحيال صمتي، أعاد الرجل صياغة سؤاله:

- ما الذي تريدينه؟

ولم يتأخر جوابي:

- الطلاق!

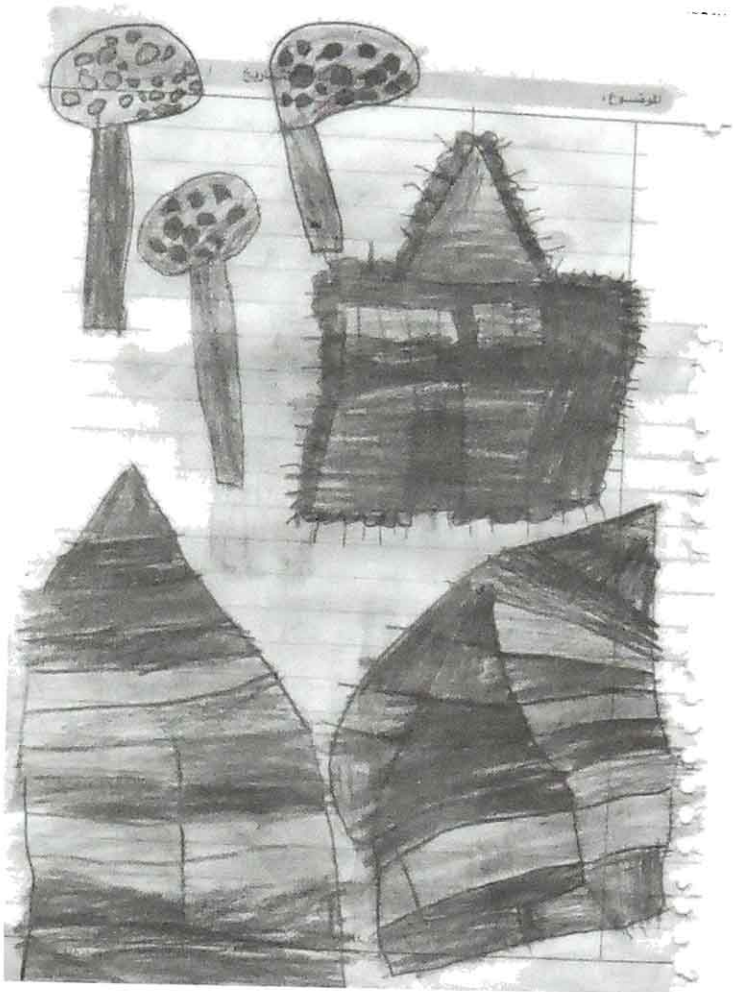

من رسوم نجود علي

٢

خارجي

في خارجي، القرية التي وُلدت فيها، لا يتمّ تعليم النساء على الاختيار. تزوجت والدتي، شويا، من والدي، علي محمد الأهدل، من دون أن تتبرّم وهي لمّا تبلغ السادسة عشرة. انصاعت بإذعان لرغبات زوجها عندما قرّر بعد ذلك بأربع سنوات توسيع العائلة باتخاذه زوجة ثانية. وأنا، بالإذعان نفسه، وافقت في البداية على زواجي من دون أن أدرك المجازفة. ففي عمري لا يطرح المرء الكثير من الأسئلة.

- كيف يُصنع الأطفال؟ سألتُ يوماً أمي ببراءة.

- ستعرفين عندما تصبحين أكبر! أجابتني وهي تشيح عن سؤالي بحركة من يدها.

اكتفيت يومذاك بوضع فضولي الطفولي على الرفّ والعودة إلى اللعب في الحديقة مع أشقائي وشقيقاتي. شكّلت لعبة الغميضة تسليتنا المفضلة، واحتوى وادي لاعة في محافظة الحجة، حيث وُلدتُ في شمال البلاد، ألف ملجأ وملجأ يمكننا

الاختباء فيها: جذوع الأشجار، الصخور الكبيرة، والمغاور التي حفرها الزمن. وما إن تتقطّع أنفاسنا من كثرة الوثب حتى نغطس ورؤوسنا أوّلاً في العشب النضر ونترك أنفسنا نتهدهد في عش الخضرة الصغير هذا. وتستغل الشمس الفرصة لتداعب بشرتنا وتُسمّر وجناتنا التي تكون قد باتت كامدة. وما إن نستريح حتى نتسلّى بمطاردة الدجاج وبمناكدة الحمير بجذوع الأشجار.

رُزقتْ والدتي بستة عشر ولداً. وشكّلّ كل حمل بالنسبة إليها، هي التي عانت صامتة من ثلاثة إجهاضات عفوية، تحدّياً حقيقياً. وفقدت واحداً من أطفالها عند الولادة، ومات أربعة آخرون من أشقائي وشقيقاتي، الذين لم أعرفهم، بسبب المرض لعدم توفّر طبيب. تراوحت أعمارهم بين شهرين وأربع سنوات[1].

ولدتني في المنزل، على غرار جميع أولادها الآخرين، وهي ممددة على حصير محبوك وتنضح عرقاً، وتعاني من العذاب، وتصلّي إلى الله ليحمي مولودها الجديد.

- استغرقتِ وقتاً طويلاً لتأتي. بدأت الانقباضات في عزّ الليل، حوالى الثانية فجراً، واستغرقت الولادة نصف نهار كامل، في عزّ الصيف، وسط حرّ رهيب. كان يوم جمعة، يوم عطلة، على ما تخبرني إياه من وقت إلى آخر لتروي فضولي.

(١) معدلات الوفيات خلال الولادة أو وفيات الأطفال في اليمن هي من بين الأرفع في العالم.

ولو أنني وُلدت في أحد أيام الأسبوع لما تغيّر شيء. لأن مسألة الولادة في المستشفى لم تُطرح أبداً بالنسبة إلى أمي. فقريتنا المحشورة في أسفل الوادي، بعيدة كل البعد عن أي بنية طبّية. وهي مؤلفة من خمسة بيوت حجرية صغيرة على الأكثر، وليس فيها بلدية، أو دكان بقالة، أو مرآب، أو حلاّق، أو حتى جامع! ولا يمكن بلوغها إلا على ظهور البغال. وحدهم بعض سائقي البيك - أبات المجازفين يجرأون على المغامرة على الطريق الحصويّ الذي ينزلق على طول التلعة، شرط أن يبدّلوا إطاراتهم مرة كل شهرين، لشدّة رداءة الطريق. وما عليكم إلا أن تتخيّلوا الانقباضات لو ان والدتي اختارت الذهاب إلى المستشفى... إذن لولدت في قلب الطبيعة! وتقول أمي أنه حتى العيادات المتنقلة لم تخاطر أبداً بالمجيء إلى خارجي!

ويحصل أن أسأل بإصرار عندما تنسى أمي، وقد أتعبتها أسئلتي، أن تخبرني نهاية قصة وصولي إلى العالم: ولكن من لعبت دور الممرضة في المنزل؟

- من حسن الحظ وجود شقيقتك الكبرى جميلة هنا! فهي، كالعادة، التي ساعدتني في قطع حبل الصرّة بواسطة سكين مطبخ. ثم أعطتك حمّامك الأول، قبل أن تلفّك بالقماش. وقد قرر جدّك جاد أن يسميك نجود. يُقال إنه إسم بدوي.

- أمي، هل وُلدت في حزيران/يونيو أو في تموز/يوليو؟ أو في عزّ شهر آب/أغسطس؟

عند هذا الحدّ، في الغالب، تنزعج أمي وتجيبني دوماً لوضع حدّ لأسئلتي:

- متى ستتوقفين يا نجود عن طرح كل هذه الأسئلة؟

والحقيقة هي أنها تفعل هذا لأنها لا تملك أدنى فكرة، فلا وجود لإسمي ولشهرتي في السجلات الرسمية. ففي الريف يولد الأولاد بكثرة من دون بطاقة هوية. أما بالنسبة إلى سنة ولادتي، فحدّث ولا حرج... تقول أمي، بالاستنتاج، أنه لا بد أنني أقارب اليوم العشرة أعوام. غير أنه يمكنني أن أكون أيضاً في الثامنة أو التاسعة... ويحدث لها أحياناً، في مواجهة إصراري، أن تنخرط في حساب علمي في محاولة منها لإعادة تركيب ترتيب ولادة أولادها، مهتدية بالفصول، وبوفيات الأجداد، وبزيجات بعض الأنسباء، وبتبديل أمكنة إقامتنا. إنه تمرين بهلواني حقيقي!

وهكذا فإنها تنتهي في كل مرّة، بعد عملية حسابية أين منها محاسبة البقّال، إلى استنتاج أن جميلة هي الأكبر سنّا، يليها محمّد، الصبي الأول و«الرجل الثاني» في المنزل والذي يملك سلطة القرار بعد والدي مباشرة. ثم تأتي منى الغامضة وفارس المندفع، ثم أنا. وتأتي من بعدي هيفا، «المفضّلة لديّ»، والتي تكاد قامتها تعادل قامتي. وأخيراً هناك مراد وعبدو وأصيل وخالد والصغيرة الأخيرة روضة ذات الشعر المجعّد. أما بالنسبة

إلى «خالتي» دولة، زوجة والدي الثانية، وهي ليست إلا واحدة من نيسباته البعيدات، فلها خمسة أولاد.

غالباً ما تتهكّم منى عندما ترغب في دغدغة والدتي بالقول: أمي دجاجة بيّاضة عن حق! أذكر أنني استفقت مرات كثيرة لاكتشف في سريرها مولوداً جديداً يجب إحاطته بالرعاية! إنها لا تتوقف أبداً.

بيد أن أمي تتذكر أنها تلقّت مرّة زيارة مندوبة لمؤسسة تدعى «تنظيم الأسرة»، وصفت لها حبوباً تبتلعها لتتفادى الحمل، وهو ما قامت به من وقت إلى آخر، كلما تذكّرت. غير أنه ولدهشتها، أخذ بطنها بعد ذلك بشهر في الانتفاخ من جديد، وقالت في قرارة نفسها إن هذه هي الحياة ويستحيل أحياناً المضي بعكس الطبيعة.

تحمل خارجي اسمها جيّداً، وهي تعني بالعربية «في الخارج»، وبتعبير آخر: في الطرف الآخر من العالم. لا يُتعب معظم الجغرافيين أنفسهم في تحديد هذا الموقع المجهري على الخرائط. ويمكن القول، تسهيلاً للأمر، إن خارجي لا تبعد كثيراً عن حجّة، وهي مدينة معروفة بما يكفي في شمال غرب اليمن، فوق صنعاء. ويجب، بين هذه الدسكرة الصغيرة النائية والعاصمة، احتساب ما لا يقل عن أربع ساعات من الطرق المزفّتة وما يعادلها من الرمل والحجارة. وكان على أشقائي، عندما يتوجهون إلى الدراسة صباحاً، تحمّل ساعتين كاملتين سيراً

على الأقدام لبلوغ المدرسة الموجودة في القرية الأكبر في الوادي. فالدراسة مخصصة لهم. كان والدي، وهو رجل يبالغ في الحماية، يعتبر أن الفتيات ضعيفات جداً وغير منيعات ليمكنهن المجازفة لوحدهن على هذه الطرق شبه الصحراوية حيث يتربص بهن الخطر وراء كل صبّارة. ثم إنه ووالدتي لا يعرفان القراءة ولا الكتابة، ولا يرى أي منهما، حقاً، حاجة في ذلك لأولاده[1].

وهكذا فإنني ترعرعت في مدرسة الحقول، وأنا أشاهد أمي تهتم بالمنزل، وأخبط الأرض برجلي وأنا أشاهد شقيقتيّ، جميلة ومنى، تذهبان لاستقاء الماء من النبع، بواسطة صفائح صغيرة صفراء، من دون أن يمكنني بعد أن أتبعهما. فالمناخ في اليمن جاف لدرجة أنه يجب شرب عدة ليترات من الماء في اليوم لتفادي التجفاف. وما أن أمكنني السير حتى أصبحت الساقية واحدة من وجهاتي الأساسية. وهي تعود علينا بالكثير من الفائدة لوجودها على بعد أمتار تحت منزلنا. ففي مياهها الصافية والنقية كانت أمي تقوم بالغسيل وبجلي القدور بعد كل وجبة طعام. وفي الصباح، بعد خروج الرجال إلى الحقول، تأتي النساء للاغتسال، في ظل الأشجار الكبيرة. وكنّا أيام العواصف نلتجئ في المنزل للحماية من البرق ومن المطر. لكن، ما إن تعود أشعة الشمس إلى الظهور، حتى نثب من جديد صوب الساقية،

(١) الأمية تطال أكثر من أمرأة من بين اثنتين في المقاطعات.

المحمّلة بالماء الذي يصل إلى عنقي. وكان أشقائي يتسلّون، لمنعها من الفيضان، ببناء سدود صغيرة لتحويل مجراها. كنا نلهو كثيراً.

كان الصبية، في طريق عودتهم من المدرسة، يجمعون الأغصان لتغذية نار التندور، فرن الخبز اليمني التقليدي. أتقنت شقيقاتي تحضير هذه الفطائر المقرقشة، وكنا أحياناً نرويها بالعسل «ذهب اليمن» كما يقول الكبار. وعسل منطقتنا يحظى بشهرة خاصة، وقد امتلك والدي بضعة قفائر نحل يوليها عنايته بحنوّ مدهش. وتُكرّر علينا والدتي، مرغّبة، ان العسل جيد جداً للصحة ويوفّر الطاقة.

يتم في المساء تناول الطعام تقليدياً حول السفرة[1]، وهي كناية عن شرشف يُفرش على الأرض. ما إن تضع أمي القدر الساخن المليء بالسلطة - يخنة عجل أو خروف مع صلصة بالحلبة[2] - حتى نسارع إلى غمس أيدينا فيه لإعداد كريّات الأرزّ واللحم التي تختفي سريعاً في أفواهنا. وقد تعلّمنا، عن طريق محاكاة أهلنا، أن نأكل من الأطباق مباشرة، من دون صحن، ولا شوكة أو سكين. هكذا نتناول الطعام في قرى اليمن.

---

(١) غالباً ما تحل السفرة، في بلدان العالم العربي - الإسلامي محل الطاولة لتناول الطعام.

(٢) الحلبة من التوابل الريحانية تُستخدم كثيراً في الشرق الأوسط. وتُستخدم أيضاً في المطبخ الأفريقي والهندي.

عشنا أياماً سعيدة على إيقاع الشمس. حياة بسيطة ولكن هادئة، من دون كهرباء، ومن دون مياه جارية. وكانت المراحيض، المحشورة وراء دغل ما، كناية عن حفرة بسيطة محاطة بجدران صغيرة من الآجر. وبحلول الليل، يتحول الصالون الرئيسي، المزين ببعض الوسادات المرمية على الأرض، إلى غرفة نوم. كان علينا، للانتقال من غرفة إلى أخرى، أن نمر بالحوش المركزي الذي يصبح، صيفاً، مركز حياتنا الجماعية الأساسي متكيّفا مع حاجاتنا. أقامت فيه أمي مطبخاً في الهواء الطلق حيث تطبخ السلطة على نار الحطب الخفيفة، وترضع في الوقت نفسه الأصغر سناً من ثدييها. وهناك يراجع أشقائي ألفباءهم في الهواء المنعش. أما الفتيات، فيأخذن قيلولة على سرير من القش.

لا يكون أبي في الغالب في المنزل. فهو يستفيق، في العادة، مع أول أشعة الشمس ويمضي ليرعى قطيعه. امتلك ثمانين خروفاً وأربع بقرات. وهذه الأخيرة تعطينا ما يكفي من الحليب لصنع الزبدة، والألبان، والأجبان الطازجة. ولا يخرج أبداً، عندما يذهب لزيارة القرويين المجاورين، من دون أن يغطي زنّته بسترة كستنائية ويعقد جنبيته على حزامه. ويُروى أن هذا الخنجر المسنون جيداً والمزيّن باليد، الذي يحمله رجال بلادي، رمز للسلطة والرجولة والمكانة في المجتمع اليمني، وأنه كان يضفي عليه بعضاً من الثقة بالنفس، وجانباً أنيقاً لا يمرّ من دون ملاحظته. وأنا كنت فخورة بأبي، غير أن الأمر يتعلّق، من

خلال ما فهمته، بما هو أكثر من سلاح للأبهة. فالأمر يتعلّق دوماً بمن يتمنطق بأجمل جنبيّة. وهو في الحقيقة يختلف سعره بحسب ما تكون قبضته مصنوعة من البلاستيك أو العاج أو من قرن حقيقي لوحيد القرن. ويمنع، بحسب قواعد ثقافتنا القبلية، استخدامه للدفاع بالقوة أو مهاجمة الخصم في حالة الخلاف. بل على العكس، يمكن للجنبية ان تُستخدم أداة تحكيم في النزاعات. وهي قبل أي شيء رمز للعدالة القبلية. لم يعتقد أبي أبداً أنه سيحتاج إلى اللجوء إليها حتى اليوم المشؤوم الذي اضطرنا إلى الهروب من القرية في أربع وعشرين ساعة.

كنت لا أزال يومها في الثانية أو الثالثة من العمر عندما اندلعت «الفضيحة». ذهبت أمي استثنائياً إلى العاصمة، صنعاء، بسبب مشاكل صحية. ولسبب من المؤكد أنه مرتبط بهذا الغياب، لكنني لم أتبين تفاصيله يومذاك، نشب خلاف عنيف بين والدي وقرويين آخرين من خارجي. وغالباً ما تكرّر في النقاشات اسم منى، الإبنة الثانية للعائلة. وتقرّر عندها حلّ المشكلة بالطريقة القبلية من خلال وضع الجنبيات ورزم الريالات بين المتخاصمين. غير أن النقاش تطور، وفي حدث استثنائي، أُخرجت النصال القاطعة من أغمادها. اتهم سكان القرية عائلتي بالاستهزاء بشرف خارجي، وبتلطيخ سمعتها. خرج والدي عن طوره، وأحس بأنه مخدوع وقد حطّ من قيمته أولئك الذين اعتقد أنهم أصدقاؤه. تم تزويج منى بين ليلة وضحاها، وهي لم تتجاوز الثالثة عشرة. ما الذي جرى حقيقة؟

كنت صغيرة جداً لأستوعب، لكنني سأعرف يوماً ما. اضطررنا إلى الرحيل سريعاً مخلفين وراءنا كل شيء: الخراف، البقر، الدجاج، النحل، وذكريات مما اعتقدت أنها زاوية صغيرة من زوايا الجنة.

* * *

كان الوصول إلى صنعاء شاقاً، وقد صعب تدجين العاصمة المغبّرة والصاخبة.

جاء التغيير قاسياً بين خضرة وادي لاعة وبين جفاف هذه المدينة الأخطبوطية. وما أن نبتعد عن وسط المدينة القديم ومنازله التقليدية الجميلة المصنوعة من اللبن، ونوافذها المحاطة بخط أبيض يشبه التخريم، حتى يتحول المنظر المديني إلى تشابك غليظ من المباني الإسمنتية التي تفتقر إلى الروح. وكنت في الشارع أصل تماماً إلى ارتفاع العوادم ودخان المازوت الذي يلهب حلقي. ونادرة كانت الحدائق العامة التي يمكننا فيها أن نزيل خدر سيقاننا. ويجب الدفع لدخول معظم متنزّهات الألعاب وهي بالتالي حكر على الأكثر غنى.

أقمنا في الطابق الأرضي من كوخ في حي القاع، في زقاق تتكوّم فيه النفايات. أُصيب والدي بالاكتئاب، وأصبح قليل الكلام، وفقد شهيته. كيف يمكن لقروي أمّي بسيط لا يحمل شهادة أن يأمل في إطعام عائلته في هذه العاصمة التي تتداعى تحت جبل من العاطلين عن العمل؟ جاء قرويون آخرون قبله

لتجربة حظّهم واصطدموا بجدار من المصاعب. وأُكره بعضهم على إرسال نسائهم وأولادهم لتسوّل بعض القطع النقدية في الساحات العامة. وبعد قرع الكثير من الأبواب انتهى الأمر بوالدي إلى الحصول على وظيفة كنّاس في البلدية، الأمر الذي أتاح له بالكاد أن يدفع إيجارنا. وكان المالك، عند كل تأخير في الدفع، يغضب ويرفع صوته. وتبكي أمي، ولا يمكن لأحد أن يخفف من ألمها.

بدأ فارس وهو الرابع في العائلة، يشعر في سن الثانية عشرة، برغبات عمره. أخذ يطالب في كل يوم بالمال ليشتري الملبّس، والسراويل على الموضة، والأحذية الجديدة مثل تلك التي نراها على لوحات الإعلان. أحذية جميلة جديدة ثمنها أكثر من معاش أبي الشهري! أخذ، وهو صاحب الطبيعة المرحة والصاخبة، يطالب دوماً بالأكثر. وحدث أيضاً أن هدد والديّ بالهرب إذا لم يتمكنا من إرضاء نزواته. وبقي، بالرغم من جانبه الذي يحب المظاهر، شقيقي المفضّل. فهو على الأقل لا يضربني بخلاف محمد كبير أشقائي الذي يحسب نفسه الرئيس. أعجبت بطموح فارس، ونزقه، وأسلوبه في الوقوف في وجه الجميع من دون الاكتراث بردات فعل محيطه. يقوم بخياراته ويتمسك بها، ولو عادته العائلة كلّها. وفي أحد الأيام، غادر المنزل نهائياً بعد جدال مع والدي ولم نره من بعدها.

للمرة الأولى في حياتي أشاهد أبي يذرف بعض الدمع. وأخذ، لدفن غُمّه، يغيب ساعات طويلة ليذهب ويمضغ القات مع أصدقاء قدامى، وانتهى به الأمر بفقدان عمله. وأخذت الكوابيس تنتاب أمي. واستفقتُ في مرات كثيرة، في الغرفة الرئيسية حيث ننام أنا وأشقائي الآخرين وشقيقاتي على فرش صغيرة مفروشة على الأرض، في عز الليل على نحيبها. لقد كان واضحاً أنها تتألم.

لم يبق من فارس إلا أثراً صغيراً جداً: صورة هويّة بالألوان يحتفظ بها محمد بعناية كبيرة داخل محفظة جيبه. الصورة نسخة طبق الأصل عن فارس: الرأس الشامخ المغطى بعمامة بيضاء مثبتة على شعر أسمر ومجعّد - ليعطي لنفسه، بالتأكيد، مظهر «الكبير» -، وهو يتفرّس بالعدسة بنظرة خبيثة ملؤها المكر.

بعد سنتين على هروبه، جاء الاتصال الهاتفي غير المتوقّع، والإشارة الأولى على أنه حي، إذ أمكن سماعه على الطرف الآخر من الخط يقول:

- السعودية... كل شيء بخير... أعمل راعياً... لا تقلقوا عليّ...

كان صوته منفعلاً، لكنني تعرّفت إليه على الفور، وبدا أنه اكتسب المزيد من الثقة. وسرعان ما تلاشت كل حياة في الخط المليء بالأزيز. كيف انتهى الأمر بفارس في مكان بهذا البعد؟

في أي مدينة هو موجود بالضبط؟ هل حصل على فرصة ركوب الطائرة، والطيران، واختراق الغيوم؟ والسعودية أين تقع بالتحديد؟ هل من بحر حيث هو؟ تدافعت الأسئلة في رأسي. واعتقدت أنني فهمت، وأنا أكتشف حديثاً بين أهلي ومحمد، أن فارس كان عرضة لتجارة الأولاد. ويقال أن الأمر يتكرر كثيراً في اليمن[1]. أيعني هذا أنه وجد عائلة تتبناه؟ ربما كان سعيداً في النهاية، ويمكنه شراء الملبّس والجينزات الزرقاء التي رغب بها كثيراً. أما أنا فأشتاق إليه جداً.

حبست نفسي في أحلامي لتعبئة الفراغ الذي سبّبه غيابه. أحلام مائية! ليست أحلاماً بسواقٍ، بل بمحيطات... لطالما أردت أن أشبه السلحفاة لأدخل رأسي تحت الماء. لم يسبق لي أبداً أن رأيت البحر، فرسمت بأقلامي الملونة، أمواجاً على دفتري الصغير، وتخيلتها خضراء وزرقاء.

- إنها زرقاء! صحّحت لي في أحد الأيام صديقتي ملاك وهي تلقي نظرة خاطفة من فوق كتفي.

(١) يشكل الاتجار بالأولاد اليمنيين في السعودية كارثة تصيب الأولاد المتحدرين من أوساط محرومة يتسرّبون من المدرسة. وبحسب بعض المنظمات المحلية غير الحكومية، فإن ٣٠ بالمئة من الأولاد ممن هم في عمر الذهاب إلى المدرسة ويعيشون على مقربة من الحدود، يذهبون في كل سنة لتجربة حظهم في السعودية، وتكون ظروف عملهم غير مأمونة للغاية. وبالرغم من أن الموضوع لا يُطرق في العائلات، فقد أمكن معرفة وقوع حالات اعتداء جنسي.

بتنا ملاك وأنا لا نفترق. التقيتها في مدرسة حي القاع التي وافق أهلي أخيراً على تسجيلي فيها. وغالباً ما كنا، في أثناء الفرص، نلعب بالكلّة. وهي أفضل صديقة لي من بين السبعين تلميذة اللواتي يتكوّمن في الصف المؤلف كلّياً من البنات. أنهيت سنتي الأولى بنجاح، وها أنا أبدأ بالثانية. تمر ملاك في الصباح لأخذي، فنذهب سوياً إلى المدرسة.

وأسأل ملاك:

- وما أدراكِ أن المياه زرقاء؟

- يأخذني أهلي، خلال العطل، إلى الحديدة، ومن هناك يمكننا رؤية البحر. أجابتني ملاك.

- ما هو طعمه؟

- مالح!

- وهل الرمل أزرق هو الآخر؟

- كلا، بل أصفر! وهو ناعم للغاية، لو أنك تعرفين...

- وماذا نجد في البحر؟

- مراكب، وأسماك، وأناس يستحمون...

أخبرتني ملاك أنها تعلمت السباحة هناك، وكان الأمر فاتناً بالنسبة إليّ، أنا التي لم أضع قدمي في بركة للسباحة. حاولت كثيراً أن أفهم كيف يمكنها أن تبقي نفسها فوق سطح الماء،

لكنني لم أتمكن من اكتشاف هذا اللغز. أذكر بالضبط في خارجي كيف كانت أمي تصرخ بي دائماً لدى اقترابي كثيراً من الساقية:

- انتبهي، لو وقعتِ ستغرقين!

قالت ملاك إن والدتها اشترت لها ثوب سباحة جميلاً ملوّناً، وإنها تعرف أيضاً كيفية بناء قصور من الرمل مع أبراج وأدراج كبيرة، تختفي من ثم تحت الأمواج. وألصقت في أحد الأيام صدفة كبيرة على أذني جلبتها من الحديدة.

- إصغي جيّداً وستسمعين البحر.

- الأمواج، نعم، أسمع الأمواج! أمر لا يُصدّق!

الماء، بالنسبة إلي، هو قبل كل شيء المطر، الذي صار اليوم أكثر فأكثر ندرة في اليمن. يحدث أن يفاجئنا البَرَد في عز الصيف. يا للسعادة! كنّا، مع أشقائي وشقيقاتي، نسارع إلى الركض في الشارع لجمع قطع الثلج الصغيرة في أحد الطسوت. وكنت أعدّها باعتزاز لأنني تعلمت، في المدرسة، العد من واحد إلى مئة. وما إن تذوب حبات البرد حتى نتسلى برش أنفسنا بمياهها المثلجة لترطيب وجوهنا. وكانت منى، التي أصبحت ذات طبع حرد منذ أن أقمنا في صنعاء، تنضم إلينا أحياناً في هذه المناسبات الاستثنائية. فقد لحقت بنا إلى صنعاء، مع زوجها الذي فرض نفسه على عجل في حياتها، بعد شهرين على رحيلنا المتسرّع من خارجي.

استعادت منى تدريجياً، على مرّ السنين، ابتسامتها الطبيعية، ومظهرها الساخر، وحسها الفكاهي الذي غالباً ما أثار حفيظة أمي. أنجبت طفلين، منيرة وناصر، ملآها بالسعادة. بل ان الأمر انتهى بتقارب بين عائلتنا وعائلة زوجها. وهكذا تقرر، لتمتين هذه الوحدة، تزويج شقيقي الأكبر محمد بواحدة من شقيقات صهري، بحسب تقاليد الشغار[1].

غير أن هذا أجمل من أن يستمر. وجاء، في أحد الأيام، دور زوجها في الاختفاء عن الساحة، في الوقت نفسه مع اختفاء شقيقتي الكبرى جميلة. هل هربا هما أيضا، مثل فارس، على أمل أن يجنيا ثروة في السعودية وربما يأتياننا بالألعاب الإلكترونية؟ أو بتلفاز مع صور متحرّكة بالألوان؟ وفي غرفة الأهل شُرع في الغالب في الهمس في موضوعهما. غير أنه مُنع منعاً تاماً على الأولاد طرح الأسئلة. أذكر أن منى، تماماً بعد غيابهما الغامض الذي سأعرف أسبابه بعد فترة لاحقة طويلة، عادت من جديد إلى طفراتها المزاجية. فهي في معظم الأحيان حزينة ومكتئبة، وفجأة، تغرق في موجة من الضحك تعيد إليها جمالها الطبيعي، وتبرز عينيها السوداوتين الكبيرتين وملامحها الدقيقة. فمنى تتمتع بالكثير من الجاذبية.

وسواء كانت في حالتها الجيدة أو السيئة، فهي دوماً لطيفة

(١) الشغار أو «زواج البدل»، عادة قديمة لا تزال منتشرة في المقاطعات والأوساط الأكثر حرماناً؛ وتقضي بإعطاء شقيقة صغيرة للزواج من فرد من العائلة المصاهرة بدلاً من المهر.

بشكل خاص حيالي، بل وحتى حامية لي. ويحصل أحياناً أن تأخذني معها للتفرج على الواجهات في جادة هايل المشهورة بمحلات الملابس. وأنظر برغبة، وقد ألصقت وجهي بالزجاج، إلى ملابس السهرة ذات البرق، والتنانير الحمراء، والقمصان الحريرية الحمراء والزرقاء والبنفسجية والصفراء والخضراء... وأتخيّل نفسي وقد تحوّلت إلى أميرة. يوجد الكثير من أثواب العرس التي تشبه ملابس فيلم ما أو ملابس سحرية لجنية ما. هذا جميل، ويدفع إلى الحلم.

في إحدى أمسيات شباط/فبراير ٢٠٠٨، وقد عدت للتو إلى المنزل، أعلن لي أبي أنه يحمل بشرى سارة وقال:

- نجود، ستتزوجين قريباً.

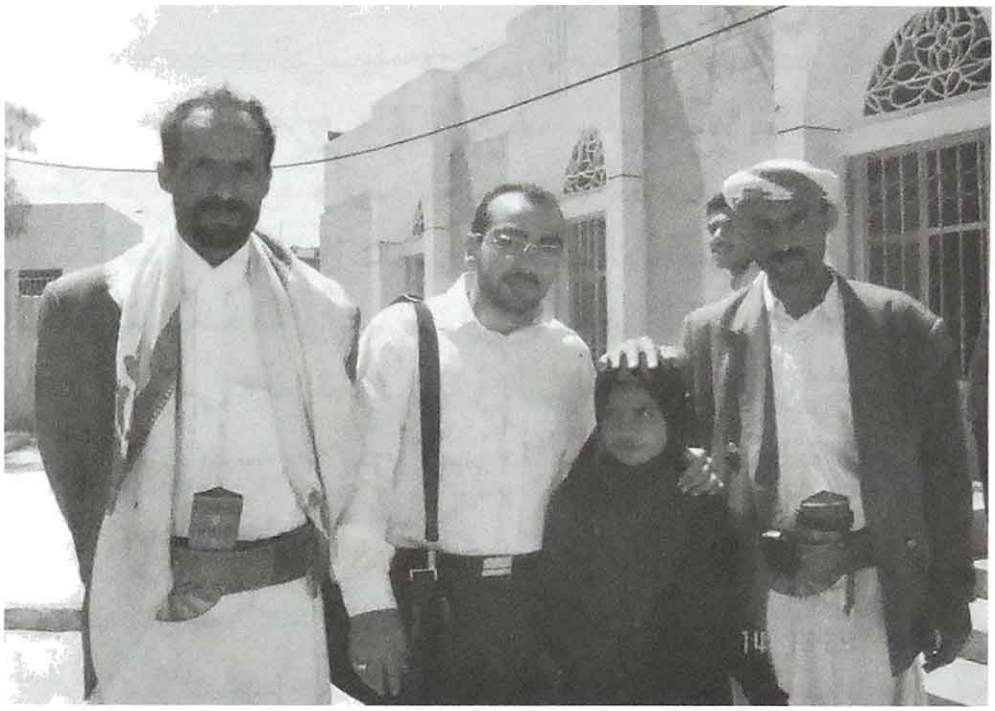

أمام المحكمة، أنا مع حامد ثابت، الصحافي في اليمن تايمز، إلى يميني

٣

عند القاضي

وجد القاضي عبدو صعوبة في إخفاء دهشته.

- تريدين الطلاق؟

- نعم!

- لكن... أتعنين أنك متزوجة؟

- نعم!

كانت ملامحه دقيقة، وكان يرتدي قميصاً أبيض يضفي لمعاناً على بشرته الجافة. غير أن وجهه اكفهرّ لسماعه جوابي. يبدو أنه يجد صعوبة في تصديقي.

- كيف يمكن، في عمرك، أن تكوني قد تزوّجت؟

- أريد الطلاق! كرّرت بنبرة مصممة من دون أن أعير انتباهاً لسؤاله.

أجد صعوبة في فهم السبب، ولكنني لم أنتحب ولا مرّة

واحدة وأنا أخاطبه. كما لو أنني استهلكت مخزوني كله من الدموع. أحسست بالانفعال، إلا أنني أعرف ما أريد. نعم، أريد أن انتهي من هذا الجحيم. اكتفيت من التألم بصمت.

- ولكنك صغيرة جداً، وهشة للغاية...

نظرت إليه وأنا أهزّ برأسي. أخذ يحك شاربه بعصبية. حسبي أن يوافق على مساعدتي! فهو، على كل حال، قاضٍ. ومن المؤكد أنه يحظى بالكثير من السلطة.

- ولماذا تريدين الطلاق؟ تابع بنبرة أكثر طبيعية، كما لو أنه يسعى إلى إخفاء دهشته.

حدّقت مباشرة في عينيه:

- لأن زوجي يضربني!

نزل عليه هذا الجواب كما لو أنني صفعته ملء وجهه، وتجمّد وجهه من جديد. لقد فهم للتو أن أمراً جللاً حصل لي وأنه ليس لدي سبب للكذب عليه. ومن دون مواربة، طرح عليّ مباشرة سؤالاً مهماً:

- هل ما زلت عذراء؟

ابتلعت ريقي، فأنا أخجل من الحديث في هذه الأمور. فعلى النساء في بلدي إبقاء مسافة بينهن وبين الرجال الذين لا يعرفنهم. ثم إنها، قبل كل شيء، المرة الأولى التي أرى فيها هذا القاضي. غير أنني فهمت في اللحظة نفسها أن علي الخوض في المسألة إذا أردت التخلّص من الورطة.

- كلا... لقد نزفت...

إنه تحت وقع الصدمة. راودني الانطباع، فجأة، أنه من تخونه قواه. لم تغب عني دهشته، ورأيت بوضوح أنه يحاول إخفاء تأثره. التقط نفساً عميقاً قبل أن يتابع:

- سأساعدك!

أحسست في الحقيقة بانشراح غريب لتمكني أخيراً من فتح قلبي لأحد. حِمْلٌ وسقط عن كتفي. رأيته يمسك بهاتفه بحركة عصبية، وسمعته يتبادل بعض الملاحظات مع شخص آخر، لا بد أنه زميل له. وأخذ، وهو يتحدّث، يحرّك يديه في كل الاتجاهات. بدا مصمماً على انتزاعي من كابوسي. المهمّ أن يجد حلاّ نهائياً! وهو، مع قليل من الحظ، سيعمل بسرعة، بسرعة كبرى... وسأتمكن هذا المساء من العودة إلى أهلي لألعب من جديد مع أشقائي وشقيقاتي. سأصبح مطلّقة في غضون بضع ساعات. مطلّقة! حرّة من جديد. من دون زوج؛ من دون الخوف أن أجد نفسي وحيدة، عند هبوط الليل، في الغرفة نفسها معه. من دون الخوف من أن أعاني، أيضاً وأيضاً، العذاب نفسه...

فرحت بأسرع مما يجب.

- يا صغيرتي، تعرفين أن الأمر قد يستغرق من الوقت أكثر مما تتصوّرين. الملف شائك، ولا يمكنني، ويا للأسف، ان أضمن لك أنك ستربحين.

حطّم القاضي الثاني الذي انضم إلينا في الصالة كل حماستي. اسمه محمد الغازي. بدا مُربَكا، وأوضح عبدو أنه نائب المحكمة، رئيس القضاة. قال إنه طيلة حياته المهنية لم يَرَ حالة شبيهة بحالتي. وشرح لي كل منهما أنه يتم تزويج الفتيات في اليمن في سن مبكرة جداً قبل عمر الخامسة عشرة[1] إنه تقليد قديم، أكمل القاضي عبدو. غير أنه، وعلى حد علمه، ومن بين كل الزيجات المبكرة في البلاد، لم يتم النطق أبداً بأي طلاق... لأنه، وحتى الآن، لم تتوجه أي فتاة صغيرة إلى المحكمة. قالا إنها مسألة شرف عائلية. فوضعي استثنائي... ومعقّد...

- يجب العثور على محام. شرح عبدو، وقد أعيته الحيلة.

محام! ولكن لماذا؟ ما نفع المحكمة إذا لم تتمكن حتى من إعلان طلاق على الفور! لا يعنيني بشيء أنني حالة استثنائية. فالقوانين هي لمساعدة الناس، أليس كذلك؟ يبدو هذان القاضيان لطيفين، ولكن هل يدركان أنني لو عدت إلى المنزل من دون أي ضمانة سيأتي زوجي لأخذي وستُستأنف التنكيدات؟... كلا لا أريد العودة إلى منزلي.

- أريد الطلاق!

كنت مصرّة وأنا أقطّب حاجبيّ.

---

(١) يسمح تعديل لقانون الزواج دخل حيّز التنفيذ في العام ١٩٩٩ للأهل بتزويج بناتهم قبل سن الخامسة عشرة بشرط أن يتعهد الزوج بعدم مقاربة زوجته مادامت لم تبلغ. لكن نادراً ما يتم احترام هذا الشرط الذي يسمح غموضه بإجراء تفسيرات اعتباطية له.

أجفلني صدى صوتي. لا بد وانني تكلمت بأعلى مما يجب. أم أن للأمر علاقة بالجدران الكبيرة البيضاء التي لها مفعول تضخيم الصوت؟

- سنجد حلاً، سنجد حلاً... تمتم محمد الغازي وهو يسوّي عمامته.

غير أن همّاً آخر تآكله. دقّت الساعة للتو مؤذنة بأنها الثانية بعد الظهر، ساعة إقفال المكاتب. نحن في يوم الأربعاء، وعطلة نهاية الأسبوع عند المسلمين على وشك البدء. لن تفتح المحكمة أبوابها من جديد إلا يوم السبت. فهمتُ أنهما قلقان أيضا لرؤيتي أعود إلى منزلي بعدما استمعا إليّ. وأضاف محمد الغازي:

- لا مجال لعودتها إلى منزلها. ومن يدري ما الذي قد يحل بها إذا تسكّعت لوحدها في الشوارع.

خطرت لعبدو فكرة: لماذا لا أبحث عن ملجأ تحت سقفه؟ لم يهضم بعد روايتي وهو على استعداد لفعل أي شيء لانتزاعي من براثن زوجي. غير أنه سرعان ما سحب كلامه بعدما تذكّر ان زوجته وأولاده ذهبوا إلى الريف لبضعة أيام وأنه لوحده في المنزل. ولا يجب على المرأة، بحسب التقاليد الإسلامية، أن توجد وجهاً لوجه مع رجل من غير محارمها، أي ليس له رابط قربى مباشر بها.

ما العمل؟

انتهى الأمر بقاضٍ ثالث، هو عبد الواحد، بعرض نفسه. فعائلته في المنزل ولديهم متسع من المكان لاستضافتي. لقد تم

إنقاذي! الآن على الأقل. هو أيضاً له شاربان لكنه ليس مربوعاً بقدر عبدو. ونظارتاه الحديديتان اللتان تلفان وجهه تعطيانه مظهراً كثير الجدية، وهو مؤثر ببذته. لم أجرؤ على مخاطبته كثيراً؛ غير أنني تمالكت نفسي. فأنا أفضّل ان أضع حيائي جانباً على أن أعود إلى بيتي... ثم إن ما يطمئنني هو أنه يبدو والداً حقيقياً يهتم جيداً بأولاده؛ وليس كأبي...

سيارته كبيرة ومريحة، وهي نظيفة جداً. وهناك أيضاً هواء بارد يخرج من فتحات التهوئة الصغيرة؛ يدغدغ وجهي، وهذا ممتع. بالكاد فتحت فمي أثناء الرحلة. لا أدري هل كان ذلك بسبب الحياء، أو لأنني في النهاية أشعر أنني بخير مع جميع هؤلاء الكبار الذين يهتمون بي.

بادر عبد الواحد إلى كسر جدار الصمت:

- أنت فتاة شجاعة جداً! أحسنت! لا تقلقي. من حقكِ طلب الطلاق. عانت فتيات أخريات قبلك من المشاكل نفسها، لكنهن لم يجرؤن، ويا للأسف، على الحديث عنها... سنقوم بكل شيء لحمايتك. سنحاول كل شيء. ولن ندعك تعودي أبداً إلى زوجك. أبداً! هذا وعد!

شرعت شفتاي في رسم ما يشبه الهلال، فقد مرّ زمن طويل لم ابتسم فيه!

وزاد قائلاً:

- ربما لا تدركين ذلك بعد، لكنك فتاة استثنائية!

فاحمريت خجلاً.

عند وصوله إلى منزله، بادر عبد الواحد إلى تعريفي على امرأته، سبأ، وأولاده. ولا بد أن شيما، ابنته، تصغرني بثلاث أو أربع سنوات. يوجد في غرفتها الكثير من دمى فلّة، وهي النسخة الشرقية عن باربي الأميركية ذات الشعر الأشقر التي تحلم بها فتيات اليمن الصغيرات.

- حرام![1]

لا يمكن لردة فعل شيما أن تكون أكثر طبيعية بعدما شرحت لها أمها أن سيّداً شريراً ضربني. قطّبت حاجبيها مقلّدة البالغين الذين يريدون توبيخ أحدهم. أثّرت عاطفتها بي، وأشارت إليّ، بابتسامة أخوية، إلى اللحاق بها للعب معها، ثم أمسكت بيدي.

أما الصبيان الأربعة فكانوا يشاهدون الرسوم المتحركة. يوجد لديهم تلفازان، يا للترف!

- تصرفي كأنك في بيتك. قالت لي سبأ بنبرة لطيفة ومرحّبة.

هذه هي إذن الحياة العائلية... لقد تبنّوني سريعاً أنا التي كنت أخشى أن أكون شخصاً يثير فضولهم. شعرت بالراحة! وأعطوني انطباعاً بأن في إمكاني أن أخبرهم كل شيء؛ من دون أن يحكموا عليّ؛ من دون أن يقاصصوني. في تلك الليلة، وأنا جالسة في الصالون مرتدية بذة نسائية، شعرت للمرة الأولى بامتلاكي القوة لأخبر قصتي...

---

(١) كلمة حرام، التي تعني الممنوع أو غير المشروع، تُستخدم أيضاً في الغالب في شكل تعجّبي للتعبير عن الدهشة أو التعاطف. وهي هنا تعني «المسكينة».

من رسوم نجود علي

٤

الزواج

شباط/ فبراير ٢٠٠٨

يمرّ الوقت مع منى ولا نشعر به عندما نذهب للتسكّع في جادة هايل. كانت فساتين السهرة تختفي أحياناً خلف البخار المتكوّن أمام أعيننا عندما نضغط أفواهنا كثيراً على واجهة محلاتنا المفضّلة. ولطالما استوقفني فستان عرس أبيض ينطبق على قياس تمثال عرض بلاستيكي. فستانُ سيّدة! ويا له من تعارض مع جميع أولئك النساء في الشارع اللواتي يتغطين بالأسود من الرأس إلى أخمص القدمين.

- إن شاء الله تحصلين على واحد مثل هذا في يوم زفافك. تهمس لي منى وعيناها المتوهجتان محاطتان بالنقاب الذي يغطي باقي وجهها عندما تخرج من المنزل.

لا تبتسم منى إلا نادراً. ولم تحظَ بفرصة الحصول على زفاف سعيد. فقد تزوجت على عجل، ولم تحصل إلا على

فستان أزرق، وهي في ما عدا هذا التفصيل عن اللون تتملّص دائماً من الخوض في ظروف زواجها. منذ أن رحل زوجها فجأة لا أدري إلى أين، لم أعد أسمع عنه شيئاً. تخيّلته مسافراً، في مكان ما، بعيداً جداً عن اليمن، غير أنني تجنّبت البحث عن معرفة المزيد. فمنى لا تحب أن تُطرح عليها أسئلة في هذا الخصوص، وتكتفي بأن تهمس بأن بكل ما تتمناه لي هو السعادة مع زوج يعطف علي ويحترمني.

لم أكن لأتخيّل أن يوم زواجي سيأتي بهذه السرعة.

ثم أنني لم أملك فكرة واضحة عن الزواج. فهو بالنسبة إلي حفلة كبيرة، مع الكثير من الهدايا، والشوكولا، والجواهر طبعاً. منزل جديد، حياة جديدة! سبق لي أن حضرت احتفالات مختلفة لأنسباء بعيدين ونسيبات. وهناك الموسيقى والرقص. كانت النساء تحت البالطو، المعطف الطويل الأسود، كثيرات الأناقة. وجوههن مبرَّجة بإتقان، وقد ملّس المصفّف شعرهن، كما في صور مغلفات قناني الشامبو. والأكثر تأنّقاً بينهن يضعن على أهدابهن دبوساً صغيراً على شكل فراشة. ولطالما تسليّتُ كثيراً في هذه الحفلات! أذكر الحنّة التي تزين أيدي العرائس الشابات وأذرعهن، مع زخرفات على شكل أزهار. جميلة هي الحنة، وقلت في نفسي أنني أنا أيضاً سأضع الحنة يوماً ما على يدي.

جاء الخبر مفاجئاً وغير متوقّع، ولم أفهم جيّداً عندما أعلن

لي أبي أن دوري قد حان. أخذتُ الأمر في البداية على محمل الارتياح، وكأنه مخرج طوارئ. فالحياة في المنزل باتت لا تُطاق. ولم يتمكن أبي أبداً، منذ فقدانه عمله في البلدية، من إيجاد عمل بدوام كامل. وبتنا نتأخر في دفع الإيجار، والمالك يهدد دائماً بطردنا.

اعتمدت أمي التوفير ولم تعد تطبخ إلا الأرز مع يخنة الخضار. وشرعت تعلّمني أن أساعدها في الأعمال المنزلية. وأخذتُ أحضّر معها الشافوت، وهي نوع من الرقاقات التي تغطى باللبن المطيّب بالبصل والثوم، وبنت الصحن، وهي حلوى لذيذة أساسها العسل. وكانت، عندما يأتي والدي بما يكفي من المال، ترسل أشقائي لشراء فروج تطبخه ليوم الجمعة، وهو يوم له اعتباره عند المسلمين. أما اللحم الأحمر، فلا حاجة للقول أن ثمنه مرتفع جداً. وفي الواقع فإن المرة الأخيرة التي أتذكّر فيها أنني أكلت الفتّة -يخنة العجل- كانت في أول خروج لي إلى أحد المطاعم دعانا إليه أنسباء لنا للاحتفال بالعيد. وقد سُمح لنا أيضاً بأن نشرب البيبسي، وهي مشروب أسود وغازي مصدره أميركا. وعند المغادرة رشّ أحد الندلاء يدي بالعطر، مثل الكبار. وكانت رائحته جذابة!

علّمتني أمي أيضاً تحضير الخبز. تشعل النار فيما أدعك العجين، وتمدّه وهي تعطيه شكل القمر البدر لتلصقه من ثم على جوانب التندور - الفرن التقليدي. غير أنها انتهت في أحد الأيام

إلى التخلّي عن التندور في السوق السوداء لقاء بعض الأوراق المالية. وكانت، في كل مرة يضربنا العوز، تبيع بعض الحاجات الخاصة. لقد قررت في الواقع عدم الاتكال على والدي.

وجاء يوم لم يبقَ فيه الكثير لبيعه. ولكثرة ما حُرم أشقائي وجبات طعام بسبب النقص في المال انتهى بهم الأمر بالانضمام إلى الباعة المتجولين الصغار الذين يتجمعون، عند الضوء الأحمر، ويدقون على الزجاج الأمامي للسيارات أملاً منهم في جني بعض القطع النقدية مقابل علبة علكة أو علبة محارم ورقية. وانتهى الأمر بمنى أيضاً إلى المشاركة في الأمر. غير أن التسوّل لعب معها مقالب سيئة. فبعد مضي ٢٤ ساعة أوقفتها الشرطة وأُرسلت لعدة أيام إلى مركز مخصص للأناس الذين يرتكبون الحماقات. وأخبرتنا، بعد عودتها إلى المنزل، انها وجدت نفسها مع سيدات متهمات بمعاشرة عدة رجال في آن، وبأن حارسات السجن كنّ يشدهن بشعرهن. ولما تعافت من معاناتها، عادت إلى الخروج لاستجداء بعض القطع النقدية، والتقت من جديد وجهاً لوجه مع الشرطة. وانتهت، بعد هذا التوقيف الثاني، إلى التخلي عن الحماقات الخطرة هذه. حينذاك جاء دورنا، هيفا وأنا. كنا نذهب أحياناً، اليد في اليد، نحك بأظافرنا على زجاج السيارات ونحن نكاد لا نرفع أعيننا إلى السائقين الذين كانوا، في معظم الأحيان، يتجاهلوننا. لم أحب ذلك، لكننا لم نكن نملك الخيار.

كان أبي، في الأيام التي لا يتلكّأ فيها متأخراً جداً في السرير، يذهب ليجلس القرفصاء، أسوة بالعاطلين عن العمل الآخرين، في إحدى ساحات الحي أملاً منه في انتزاع عمل يومي صغير: عامل، بنّاء، أو أي نوع من الأعمال لقاء ما يوازي ألف ريال[1] وأخذ يمضي أوقات بعد الظهر، في شكل أكثر فأكثر انتظاماً، عند الجيران لمضغ القات، وكان يقول إن هذا يساعده على نسيان مشاكله. أصبح الأمر شعائرياً. يجلس القرفصاء مع غيره من رجال الحي، ويخرج أفضل الأوراق الخضراء من كيس بلاستيكي صغير، ويدخلها في زاوية فمه. وكلما فرغ الكيس كلّما انتفخ خدّه؛ وتنتهي الأوراق إلى تشكيل كرة يمضغها لساعات وساعات.

وفي جلسة من جلسات القات هذه، تقرّب إليه شاب في الثلاثين من العمر.

- أريد لعائلتينا أن تجتمعا. قال له الشاب.

اسمه فارس علي تامر، ويعمل مسلّم بضائع، وينقل على دراجته النارية الطرود إلى هنا وهناك. أصله، مثلنا، من قرية خارجي، وهو يبحث عن زوجة. وافق والدي على الفور. وفي منطق الأمور كنتُ من يجب تزويجها بعد شقيقتي الكبيرتين جميلة ومنى. وبعودته إلى المنزل كان قد اتخذ قراره، وما من أحد يمكنه معارضته.

---

(١) الألف ريال يساوي حوالي ٤،٥ يورو.

في الليلة نفسها أمكنني الإصغاء إلى محادثة بين والدي ومنى.

- نجود صغيرة جداً على الزواج. قالت منى.

- صغيرة جداً؟ عندما تزوج النبي من عائشة، لم تكن سوى في التاسعة. أجابها والدي[1].

- نعم، حصل ذلك في زمن النبي، لكن الأمر يختلف الآن.

- اسمعي.. هذا الزواج يشكل الطريقة الأفضل لحمايتها!

- ماذا تريد قوله بهذا؟

- تعرفين ذلك جيّدا. سيجنّبها المشاكل نفسها التي عانيت منها أنت وجميلة... سيجنّبها أن يغتصبها مجهول وتصبح عرضة للشائعات السيئة... هذا الرجل يبدو نزيهاً على الأقل، وهو معروف في الحي، وأصله من قريتنا. وقد وعد بعدم الاقتراب من نجود إلى أن تصبح أكبر سنّا.

- لكن...

- اتخذت قراري! ومن ثم تعرفين جيّداً أننا لا نملك ما يكفي من المال لإطعام العائلة كلها. وبالتالي، سيكون لدينا فم بالناقص...

---

(١) إن ذكر هذا الزواج للنبي (ص) نابع من مفهوم أن زواج النبي (ص) من أم المؤمنين إنما يمثّل إرادة إلهية (الرجوع إلى السيرة النبوية).

أمي، من جانبها، بقيت صامتة. بدت حزينة، ولكن مذعنة. وهو، في النهاية، موضوع زيجة مدبّرة، على غرار معظم زيجات النساء اليمنيات. وهي تدرك جيّداً أن النساء في بلادنا هن اللواتي يعانين، فيما الرجال يعطون الأوامر. وبالتالي، فإن الدفاع عني محكوم بالفشل.

تردّد في رأسي صدى كلمات والدي. فم بالناقص... لست في نظره، إذاً، سوى حمل ثقيل استغلّ أول فرصة سانحة للتخلص منه... صحيح أنني لم أكن أبداً الفتاة الصغيرة العاقلة التي أحبَّ الحصول عليها. وعلى كل حال، أليس من طبيعة الأطفال ارتكاب الحماقات؟ كنتُ أحبه بالرغم من كل عيوبه، وبالرغم من رائحة القات الكريهة التي تفوح منه، وبالرغم من اصراره على أن نستعطي بعض كسر الخبز في الشارع.

«المشاكل نفسها التي عانيت منها أنت وجميلة». ماذا يعني بذلك؟ جلّ ما أعرفه أن أسبوعاً مرّ، ثم آخر فآخر، من دون أن تعاود جميلة الظهور. فهي، على غرار زوج منى، ذهبت فجأة. ثم إنني انتهيت إلى التخلي عن إحصاء الأيام التي تبعدني عنها. فهي، التي غالباً ما كانت تزورنا، اختفت نهائياً. أحببت جميلة كثيراً. وهي، ذات الطبيعة المتحفظة، لم تكن تتكلم كثيراً، غير أنها كريمة ومهتمة. كانت تأتيني أحياناً بالسكاكر. وزوج منى، هو الآخر، لم يعد أبداً منذ ذلك الرحيل الغامض. إلى أين ذهب يا ترى؟ قصص الكبار هذه كثيرة التعقيد بالنسبة إلي.

طالبت حماة منى، في غيابه، بحضانة حفيديها، منيرة وهي في الثالثة وناصر وعمره سنة ونصف. فطر ذلك قلب منى التي بذلت مجهوداً محموماً لعدم الانفصال عن ولديها، وانتهت معركتها إلى نصف انتصار. توصّلت في النهاية، بعد إلحاح كبير، إلى الاحتفاظ بالصغير معها متحججة بالحاجة إلى إرضاعه، واستحوذ عليها الخوف من فقدانه فلم تفارقه عينها. ما إن يبتعد عنها حتى تركض وراءه وتضمّه بقوة بين ذراعيها، كما لو أنه كنز تحاول أن تخبئه.

تتابعت التحضيرات للعرس بسرعة كبيرة. وسرعان ما أدركت مصيبتي. فبقرار من عائلة زوجي المستقبلي اضطررت إلى التوقف عن الذهاب إلى المدرسة قبل شهر على ليلة الزفاف. عانقت ملاك، وأنا مثقلة بالحزن، وقلت لها إنني سأعود سريعاً، وهذا وعد.

- سنذهب يوماً ما معاً إلى شاطئ البحر. همست وهي تشدني بقوة بين ذراعيها.

لن أراها بعد ذلك أبداً.

اضطررت أيضاً إلى أن أودّع معلّمتيّ المفضّلتين، سامية وسميرة. فمعهما تعلّمت كتابة اسمي بالأحرف العربية، من اليمين إلى الشمال - انحناءة النون، تورّك الجيم، عروة الواو، وثَنيّتا الدال: نجود! أنا مدينة لهما بالكثير.

كان الحساب والقرآن من المواد المفضلة لديّ. تدرّبنا في

الصف على أن نحفظ غيباً أعمدة الإسلام الخمسة: الشهادة، أو إعلان الإيمان؛ الصلوات اليومية الخمس؛ الحج الكبير إلى مكة؛ الزكاة، أي المال الذي يُعطى للفقراء لمساعدتهم؛ ومن ثم رمضان الذي يجب في خلاله الامتناع عن الأكل أو الشرب من شروق الشمس إلى غروبها. وقالت لنا سميرة إننا سنصوم رمضان أيضاً عندما نكبر.

إلا أن الرسم كان المفضّل لدي. أخذت أرسم بأقلام التلوين الإجاص والأزهار؛ وأيضا فيلات بأسطح زرقاء ونوافذ خضراء ومداخن حمراء. وكنت أمام سياج المدخل أصوّر أحياناً حارساً بالبذة الرسمية. يقال إن منازل الذين يملكون الكثير من المال يحميها حرّاس. وكنت أرسم دوماً في الحديقة أشجاراً مثمرة كبيرة، مع حوض ماء صغير في الوسط.

كنا في الفرص نلعب الغميضة ونتلو أغاني الصغار. عشقت المدرسة، فهي ملجأي وسعادتي الصغرى.

اضطررت أيضاً إلى وضع حد لهروبي إلى عند الجيران، على بعد أمتار قليلة منّا. فهم يملكون جهاز ترانزيستور. اعتدت الذهاب لزيارتهم مع شقيقتي الصغيرة هيفا للاستماع إلى أشرطة هيفا وهبي ونانسي عجرم، وهما مغنيتان لبنانيتان جميلتان بشعريهما الطويلين ووجهيهما المطليين كثيراً بالمساحيق. امتلكتا أعيناً جميلة وأنفين كاملين. تسلينا بتقليدهما برفرفة رموشنا وهز

أوراكنا. وهناك أيضا المغنية اليمنية، جميلة سعد، التي تعجبنا كثيراً. إنها نجمة حقيقية! «مغرور أنت كثيراً بنفسك... تعتقد أنك الأفضل» تقول في إحدى أغانيها الغرامية.

جيراننا هم أيضاً من المحظوظين النادرين في الحي الذين يملكون تلفازاً. كان التلفزيون يجعلني أسافر. عشقت مشاهدة «توم وجيري»، رسومي المتحركة المفضلة، وأيضاً «عدنان ولينا» وهو مسلسل يخبر قصة صديقين آسيويين في بلاد بعيدة. عيون كليهما خزراء، وأعتقد أنهما يابانيان أو ربما صينيان. غير أن المذهل هو أنهما يتحدثان العربية مثلي، من دون لكنة! وعدنان صبي شجاع يرغب دوماً في مساعدة لينا. وهو على كل حال أنقذها مرات عدة من براثن أشخاص أشرار أرادوا اختطافها. انها محظوظة! وقد حسدتها كثيراً.

ذكّرني عدنان بأيمن، وهو فتى من القاع لن أنساه أبداً. كنت في أحد الأيام أسير في الشارع مع صديقات لي عندما قطع علينا أحد أبناء الحي الطريق. شرع يخيفنا وهو يقول لنا أموراً رذيلة تشبه الشتائم. أخذ يضحك مستهزئاً حيال مظهرنا الخائف. وعند هذا الحد انطلق أيمن بشكل مفاجئ وضيّق عليه، وهدده:

- إرحل وإلا رميتك بالحجارة على وجهك!

خاف الفتى وهرب. يا للفرجة! كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي يدافع أحدهم عنّي. أصبح أيمن بطلي الخيالي،

وأخذت أقول في نفسي أنني، عندما أكبر، ربما أحظى بزوج مثله.

* * *

- لي لي لي لي!!!

شرعت نسيبات العائلة في التصفيق عندما وصلت. وأنا بالكاد أميّز الوجوه بسبب الدمع الذي يملأ عينيّ. تقدّمت ببطء، وأنا أبذل ما في وسعي حتى لا أتعثّر بهذا الثوب الكبير جداً عليّ والذي ينسحب على الأرض. أُلبست بتعجّل جلباباً طويلاً بلون الشوكولا، نَصَل نصف لونه، ويعود إلى زوجة شقيق من سيصبح زوجي. وتولّت إحدى القريبات ترتيب شعري على شكل عقيصة تسحق رأسي، من دون أن أحظى حتى ببعض الماسكارا على عيني. وأمكنني، عندما وقعت عيناي على مرآة صغيرة، أن أنظر سريعاً إلى خدّيّ المستديرين وعينيّ الكستنائيتين اللتين تشبهان اللوز، والخزراوتين بعض الشيء. كان جبيني أملسا، وشفتاي ورديتين. أمعنت كثيراً في وجهي ومع ذلك لم أعثر على أي تجعيدة. فأنا صغيرة، وصغيرة جداً.

لم يمضِ أسبوعان على طلب الزواج حتى جرى الاحتفال بين النساء، بحسب العادات المحلية، في منزل أهلي الصغير جداً. كنا نحو أربعين على الأكثر. وقد اجتمع الرجال، في غضون ذلك، عند أحد أعمامي ليمضغوا القات. وقد تم أيضاً، مساء ما قبل الأمس، التوقيع على العقد في مجلس خاص ضم الرجال. جرى ذلك كلّه من دوني ولم تعرف به أمي ولا

شقيقاتي. ولم نطلع على بعض ذلك إلا في فترة بعض الظهر من خلال أشقائي الصغار الذين ذهبوا لتسوّل بعض الدراهم في الشارع لإطعام الجمع المؤلف من أبي وعمّي وزوجي المقبل الذي رافقه والده وشقيقه. حصل الاجتماع بناء لقواعد قبلية راسخة جداً. ولعب صهر أبي، الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة، دور الكاتب العدل. فهو الذي حرّر محتوى العقد، وقد تقرر أن يكون مهري[1] ١٥٠ ألف ريال[2].

- لا تقلقي! سمعتُ والدي يهمس لأمي مع هبوط الليل. لقد جعلناه يقطع وعداً بعدم مسّ نجود قبل مرور سنة على دورتها الشهرية الأولى.

اقشعرّ بدني.

أُنهي سريعاً الاحتفال الذي بدأ ساعة الغداء، من دون ثوب أبيض، ومن دون أزهار الحنّة على يدي، ومن دون ملبّسي المفضل بجوز الهند، ذلك الذي أحبه كثيراً والذي له طعم الأيام السعيدة. غير أنه بدا لي أنه استمر إلى الأبد. جلست في إحدى زوايا الغرفة، ورفضت المشاركة في الرقص مع النساء الأخريات، حيث أنني أخذت أدرك شيئاً فشيئاً ان حياتي آخذة في الانقلاب؛ وليس في الاتجاه الصحيح. أخذت الأصغر سنّا

(١) للمهر أهمية اجتماعية واقتصادية في اليمن. ويتم التفاوض مسبقاً على قيمته بين رجال العائلتين، بأسلوب المساومة التجارية.

(٢) نحو ٥٤٠ يورو.

في إبراز سررهن وهن يرتجلن رقص البطن وتلوين أجسادهن كما في فيديوكليب مثير للعواطف. واندفعت الأكبر سناً، يداً بيد، في أشكال رقص فولكلوري أكثر تقليدية، مثل تلك التي نشاهدها في القرى. وكن يتوقفن، بين قطعتين موسيقيتين، ويأتين لتحيتي. عانقتهن كما يتوجّب، إلا أنه لم يمكنني التظاهر بالابتسام.

بقيت جامدة الإحساس، ووجهي منتفخ من كثرة البكاء، وأنا أجلس في زاوية الصالون. لم أرد ترك عائلتي، ولم أشعر بأنني مستعدة لذلك. وها إنني أفتقد المدرسة كثيراً، وأفتقد ملاك أكثر. وبوقوع نظري، خلال الاحتفال، على شقيقتي هيفا أخذت أدرك أنني سأفتقدها أيضاً. واجتاحني خوف مفاجئ: ماذا لو حُكِم عليها هي أيضاً بمصيري نفسه؟

غادرت المدعوات مع غياب الشمس، وغفوت وأنا بكامل لباسي وهيفا إلى جانبي. وانضمت إلينا والدتي بعد ذلك بقليل بعدما أعادت ترتيب الصالون. ولما عاد والدي من اجتماع الرجال كنا جميعنا نياماً. لم أبصر أي حلم في آخر ليلة لي كعزباء، ولا أذكر أيضاً أنني اضطربت في نومي. تساءلت فقط إذا كنت سأستفيق صباح اليوم التالي كما يُستفاق من بعد كابوس.

ما إن غمر نور الشمس الغرفة، حوالي الساعة السادسة، حتى أيقظتني أمي من سباتي، وطلبت مني أن أتبعها في الممشى

الصغير. ركعنا، كما في كل صباح، أمام الله ونحن نتلو أولى صلوات اليوم، ثم قدّمت لي طبقاً من الفول - فاصوليا بيضاء مع البصل وعصير الطماطم نتناولها على الفطور - مع كاسة شاي بالحليب. وكانت في انتظاري بقجة صغيرة عند الباب، ادعيت أنني لم أرها. لم أذعن لهذه الحياة الجديدة الملأى بالغموض إلا بعدما دوى منبّه سيارة خارج المنزل. ضمّتني أمي بقوة إلى صدرها، قبل أن تساعدني على لفّ نفسي بمعطف وبوشاح سوداوين. وأنا كنت أكتفي، في السنوات الأخيرة، بوشاح صغير ملوّن لدى خروجي إلى الشارع، ويحصل أن أنساه أحياناً، من دون أن يعير أحد للأمر انتباهاً. ثم رأيت أمّي تمدّ يدها إلى البقجة وتسحب منها نقاباً أسود ناولتني إياه. لم يسبق أبداً، حتى الآن، أن أُجبرت على التنقّب كلّياً.

- عليكِ، بدءاً من اليوم، أن تغطي نفسك لدى خروجك إلى الشارع، فأنت قد أصبحت امرأة متزوجة. لا يجب على أحد، غير زوجك، أن يرى وجهك، لأن شرفه على المحك، ولا يجب عليك أن تلطخيه.

وافقت بحزن وأنا أودّعها، وحقدت عليها لتخليها عنّي. لكنني لم أجد الكلمات لأعبر لها عن ألمي.

حدّد رجل قصير القامة نظره بي من وراء سيارة الدفع الرباعي التي أنتظرتني أمام باب المدخل. ارتدى، على غرار أبي، ثوباً أبيض طويلاً، وله شاربان. شعره المقصوص قصيراً

موروب، ومقصّب بعض الشيء؛ عيناه سوداوتان، ووجهه غير محلوق جيداً، ويداه مسودّتان من الشحم. لم يكن جميلاً. هذا هو إذاً فايز علي تامر، الذي اختار أن يتخذني زوجة له. هذا المجهول الذي ربما التقيته مرّة في خارجي، التي عدنا إليها أحياناً خلال هذه السنوات الأخيرة، والذي لا أتذكره.

أُجلست على المقعد الأول خلف السائق مباشرة مع أربعة راكبات أخريات من بينهن زوجة شقيق زوجي. ابتساماتهن متشنجة ولا يبدون ثرثارات. وكان هو، الغريب، يحتل الصف الثاني إلى جانب شقيقه. اطمأنيت بعض الشيء لأنه لم يكن عليّ أن أنظر إلى وجهه خلال طريقنا الطويل كلّه. إلا أنني شعرت بعينيه عليّ، مما أصابني بالقشعريرة. من هو حقّا؟ لماذا أراد أن يتزوجني؟ ما الذي يتوقّعه منّي؟ والزواج، ماذا يعنيه ذلك بالضبط؟ لم أملك أي جواب على كل هذه الأسئلة.

لم أتمكن مرة أخرى من حبس دموعي عندما بدأ المحرّك بالخرير، وضغط السائق على المسرّع. خفق قلبي بشدّة كبيرة، وألصقت وجهي على الزجاج، ولم يغادر نظري أمي إلى أن أضحت نقطة صغيرة تكاد تكون غير موجودة...

لم أنبس ببنت شفة طوال الرحلة. تهت في أفكاري، مع فكرة وحيدة في رأسي: إيجاد طريقة للعودة إلى منزلي. أن أهرب! إلا أنه كلما ابتعدت السيارة عن صنعاء، في اتجاه الشمال، أدركت أن محاولاتي ستُمنى بالفشل. كم مرّة فكّرت

في انتزاع هذا النقاب الأسود الذي يخنقني؟ أحسست أنني صغيرة، صغيرة جداً على هذا كله. على النقاب، على هذه الرحلة الطويلة بعيداً عن أهلي، على هذه الحياة الجديدة إلى جانب رجل يثير اشمئزازي ولا أعرفه. توقّفت السيارة ذات الدفع الرباعي فجأة.

- افتح الصندوق!

أجفلني صوت الجندي. فقد تعبت من كثرة البكاء، وغفوت. ثم تذكّرت سريعاً أن الطريق التي تؤدي إلى الشمال ملأى بحواجز التفتيش، وأننا لسنا إلا عند أول حاجز منها. يقال إن سبب ذلك يعود إلى الحرب الدائرة في الشمال بين الجيش والمتمردين الحوثيين[1]. يقول والدي إن الحوثيين من الشيعة، فيما معظم اليمنيين من السنة. ما الفرق بينهما؟ لا أملك أدنى فكرة. كل ما أعرفه أنني مسلمة وأقوم بصلواتي الخمس اليومية.

بعد نظرة سريعة داخل السيارة، أومأ الجندي إلينا بالتقدّم. لو أنني استفدت فقط من هذه الفرصة لطلب المساعدة، لأسأله أن يهب لنجدتي! أَوَليس دوره، ببذته الخضراء وبسلاحه على

(١) دار من عام ٢٠٠٤ إلى صيف ٢٠٠٨ نزاع معقّد ودموي، حول مدينة صعدة، في شمال البلاد، بين القوات الحكومية وحركة المتمردين الحوثيين التي يتحدّر أعضاؤها من الأقلية الزيدية، وهي فرع من الإسلام الشيعي (غالبية اليمنيين من السنة). ومطالب الحوثيين هي في الوقت نفسه دينية واجتماعية وسياسية.

كتفه، أن يسهر على النظام والأمن؟ لأمكنني عندها أن أقول له إنني لا أريد مغادرة صنعاء، وإنني أخشى أن أضجر في القرية التي لا أعرف أحداً فيها...

لقد تعوّدت على صنعاء العاصمة. أحببت مبانيها قيد الإنشاء، وجاداتها الكبرى، ولوحاتها الإعلانية للهواتف المحمولة والمشروبات الغازية بطعم الليمون التي تخز سقف الفم. بات التلوث وزحمة السير جزءاً من حياتي اليومية. غير أن المدينة القديمة، باب اليمن، هي التي سأشتاق إليها أكثر. وباب اليمن، المدينة الحقيقية داخل المدينة، مكان سحري أحببت التسكّع فيه ممسكة بيد منى أو جميلة، وأنا أحسب نفسي مغامرة في مهمة استكشافية! إنه عالم مختلف، بمنازله الطينية وزخارفه البيضاء ذات الرسوم المستديرة حول النوافذ. زخرفات هي من الدقة بحيث تحسب أن مهندسين هنوداً مروا من هنا، منذ زمن بعيد، قبل وقت طويل على مولدي. هذا المكان بلغ حداً من الرهافة بحيث أنني اخترعت لنفسي قصة ملك وملكة لا بد وأنهما عاشا فيه أياماً سعيدة، وربما أنهما يملكان المدينة القديمة بكاملها؟

ما إن ندخل باب اليمن حتى يتصاعد الضجيج من كل مكان: تختلط صيحات التجار مع صخب الراديو كاسيت وشكاوى الشحاذين الحفاة. ويحدث، عند انعطافة أحد الشوارع، أن يمسك ماسح أحذية برجلك ليعرض عليك خدماته. ثم تأتي الدعوة إلى الصلاة لتسيطر بانتشارها فجأة على هذا

الحفل الموسيقي. كنت أتسلى بمدّ أنفي للتعرف على روائح الكمّون، والقرفة، وكبوش القرنفل، والجوز، والزبيب المنبعثة من الدكاكين الصغيرة. وأقف أحياناً على رؤوس أصابع قدمي لأقدّر في شكل أفضل محتوى البسطات المرتفعة بعض الشيء بالنسبة إلى قامتي، والتي تتكدّس على مدّ النظر وتعرض خليطاً من الجنبيات الفضّية، والوشاحات المطرّزة، والزلابية الحلوة، والحنة، وأثواباً للفتيات الصغيرات من عمري.

نلتقي، أحياناً، في باب اليمن نساء متدثّرات بحجابات مزهرة طويلة وملوّنة، هي الستارات. وكنت أتسلّى بتسميتهن «سيدات المدينة القديمة»، لأن ملابسهن ذات الألوان الفرحة مختلفة جداً عن الأوشحة السوداء التي ترتديها النساء عادة في الشارع، وتبدو لي أنها من حقبة أخرى[1].

بعد ظهر أحد الأيام، وأنا أرافق عمتي للتسوّق، تهت وسط هذا الحشد الكثيف. تركت نفسي ألتهي بهذا العالم شبه الوهمي الذي أهوى تذوّقه بعينيّ، ثم عدت أدراجي في محاولة لإيجادها. لكنني سرعان ما وجدت ان الأزقة كلها تتشابه. هل يجب أن أسلك التالي على اليمين؟ أم على الشمال؟ جلست القرفصاء، وقد ضلّيت وجهتي، وشرعت بالبكاء. لقد ضعت؛

(١) بحسب الشهادات المجموعة في صنعاء فإن نساء اليمن لم يبدأن التحجّب الأسود إلا عند بدء تدهور الأمبراطورية العثمانية - التي بسطت لفترة نفوذها على اليمن - واستيلاء الإمام يحيى على السلطة في اليمن الشمالي.

وإلى الأبد. استغرقني الأمر ساعتين كاملتين قبل ان يراني أحد الباعة الذي يعرف عمتي.

- نجود، متى ستكفين عن الطيش؟ سألتني وهي تمسك بيدي.

وها أنا ضائعة من جديد في هذه الغداة الحزينة للزفاف في هذه السيارة ذات الدفع الرباعي غير المريحة. غير أن العالم الذي يحيط بي هذه المرة حقيقي جداً. انتهى سحر التوابل والنظرات العطوفة للباعة الذين يجعلون الأولاد يتذوقون الزلابية وهي ساخنة. تأخذ حياتي اتجاهاً جديداً، في عالم الكبار هذا، حيث لم يعد من مكان للأحلام، والوجوه جامدة، وما من أحد يبدو أنه يبالي بي.

ما إن أصبحت العاصمة وراءنا، حتى أخذت الطريق شكل شريط أسود طويل يتعرّج عبر الجبال والوديان. وكنت، لدى كل منعطف، أتمسك بقوة بمقبض مقعدي. أخذت أشعر بالغثيان والانقباض في معدتي. واضطررت مرات عدة إلى قرص نفسي بقوة للسيطرة على الغثيان. أفضّل الموت على أن أطلب منه التوقف جانباً ليمكنني تنشق الهواء النقي. عندها شرعت، لكي أصمد، في ابتلاع ريقي بهدوء، وأنا أحاول أن أثير أقل قدر ممكن من الضجيج.

قررت، لصرف الأنظار عني، أن أنصرف إلى تمرين يقضي بملاحظة أدق تفاصيل المنظر الطبيعي. قلاع قديمة مهدمة متناثرة

على صخور شاهقة. بيوت صغيرة كستنائية اللون مهدّبة بالأبيض تذكّرني بغموض بباب اليمن. شجر صبّار على أطراف الطريق، تلال جبلية جافة كلّيا تتناوب مع جيوب زراعية نلتقي فيها بماعز ترعى العشب وبأبقار؛ وبنساء أيضاً وجوههن مغطاة بوشاح يثنينه على ارتفاع الفم. أعتقد أنني رأيت أيضا هرّتين مدهوستين، لكنني أغمضت عينيّ سريعاً كي لا أطبع هذه الصورة في رأسي. وعندما أعدت فتحهما كان بحر من القات يحيط بالسيارة. من اليمين ومن اليسار خضار على مدى البصر. هذا رائع! ويتنفّس نضارة!

- القات مأساتنا... يستهلك كمّاً كبيراً من الماء بحيث أننا سنموت جميعنا عطشاً في هذا البلد![1] صاح السائق تعجّباً.

فكّرت بأن الحياة مصنوعة بطريقة غريبة. فحتى الأشياء الجميلة يمكن أن تتسبب بالسوء. ليس سوى الأشرار من يحصدون البؤس... هذا صعب على الفهم...

على مسافة أبعد قليلاً، إلى يميني تماماً، تعرّفت على كوكبان، وهي قرية صغيرة محفورة في الصخر تجثم على رأس تلّة. أذكر أنني، وأنا أصغر سنّاً، مررت بقربها مع أهلي في الطريق إلى الاحتفال بالعيد في قرية أخرى. يُحكى أن نساء كوكبان جميلات ونحيفات لأنهن ينزلن في كل صباح للعمل في

(١) يُستخدم الآن ثلثا احتياطي الماء في اليمن لريّ القات.

الحقول. رحلة النزول تستغرق ساعة، وساعة أخرى للصعود. إنها رياضة حقيقية! يا للشجاعة! ساعة للنزول وساعة للصعود... ساعة للنزول وساعة للصعود...

أيقظني هدير المحرّك وقد أجفلني. كم من الوقت استغرقت في النوم؟ كم من الكيلومترات قد اجتزنا حتى الآن؟ ليس لدي أي فكرة.

- واحد... اثنان... ثلاثة!

وراء السيارة ذات الدفع الرباعي، بذل نصف دزينة من الرجال المستندين إلى الصندوق جهدهم، بكل ما أوتوا من قوة، في دفع سيارتنا الغارقة في حفرة ترابية. حاولت، وقد أحاطت بي غيمة من الغبار أثارتها الإطارات، أن أفك عن إحدى اللوحات رموز اسم قرية جافة وقاحلة حطينا فيها: أرجم. يبدو أننا غادرنا الطريق الرئيسية لندخل طريقاً محفّرة وحصويّة، تنساب على طول تلعة حتى خانق عميق. لقد علقت السيارة حقّاً.

- من الأفضل لك أن تقوم بنصف استدارة! لن تتمكن أبداً من متابعة هذه الطريق، وهي ستزداد سوءاً. قال أحد القرويين وقد لفّ وجهه بقطعة قماش بيضاء وحمراء.

- لكن علينا الوصول إلى خارجي. رد السائق.

- هه، بهذه السيارة، لا بد أنك تمزح!

- ما العمل إذاً؟

- الحل الأفضل هو على ظهر الحمار!

- على ظهر الحمار! لكن معنا نساء في السيارة. يُحتمل أن يكون ذلك صعباً...

- اسمع، أقترح عليك استخدام أحد فتياننا، فهو معتاد على الذهاب والإياب إليها ومنها لنقل الزوار. إطارات سيارته ملائمة، وهو يبدّلها كل شهرين على الأقل، فالطريق سيئة حقّا!

اتُّخذ القرار عندها بإبدال السيارة. وفيما انشغل الكبار في نقل البقج من سيارة إلى أخرى، استفدت من بضع دقائق من الراحة لإزالة خدر ساقيّ. أخذت نفساً طويلاً مالئة رئتي إلى أقصى حد من هواء الجبال النقي. عرقت كثيراً إلى درجة أن الفستان الكستنائي، الذي ما زلت أرتديه تحت وشاحي الأسود، التصق بجسمي. رفعت ثناياه لأقترب من التلة. وادي لاع! هناك في الاسفل، في البعيد، البعيد البعيد، تعرّفت إلى وادي لاع، وادي قريتي. لم تتغيّر! مع أنني كنت صغيرة عندما غادرناها. أهي ذكريات طفولتي التي تعود إليّ، والتي بقيت بفضل بعض الرحلات الحديثة إلى المنطقة برفقة أهلي؟ أم أنها الذكرى التي أنعشتها الصور المصفرّة المبعثرة في ألبوم عتيق ينظر فيه أبي من وقت إلى آخر والدمعة في عينه؟ عادت إلى ذهني صورة جدّي الذي أحببته كثيراً جادي. وبكيت كثيراً لدى موته في السنة السابقة. كان يرتدي دوماً عمامته البيضاء الملفوفة حول رأسه.

لحيته خفيفة وآخذة في الشيب، وتتناقض مع حاجبيه الكستنائيين الكثيفين. كان يأخذني أحياناً على ركبتيه ويتسلّى في قلبي إلى الوراء ليلتقطني في اللحظة الأخيرة. كنت أحس بالراحة بين ذراعيه. تعوّدت أن أفكر أنه إذا انهار العالم من حولنا فإن جادي سيبقى دوماً إلى جانبي لانقاذي. لقد رحل باكراً جداً.

- نجود! نجود!

استدرت وأنا أتساءل من الذي يمكن أن يناديني. فهو ليس صوتاً مألوفاً، ورنته غير معهودة، وغريبة على أذني. ليست كرنّة جاد التي يمكنني دوماً التعرف إليها وأنا مغمضة العينين. أدركت، عندما رفعت رأسي، أنه هو، زوجي المجهول، يخاطبني للمرة الأولى منذ مغادرتنا صنعاء. أعلن، وهو بالكاد يلتفت إليّ، أنه حان وقت المغادرة. وافقت فوراً وأنا أتوجه نحو «كاروستنا» الجديدة: بيك - آب تويوتا أحمر وأبيض صدئ بأكمله. أُصعدت في الأمام، إلى يمين السائق الجديد، مع شقيقة زوجي المحجبة. أما الرجال فصعدوا في الخلف في الصندوق المكشوف مع ركاب آخرين يقومون بالرحلة.

- تمسكا، سوف نتمايل! قال السائق محذراً وقد أخذت أغنية فولكلورية تصدح من مكبرات الصوت الصدئة مثل البيك - آب. وجاءت رنّات العود، التي ترافق صوت حسين محب، المغني المحلي المشهور جدّاً، لتضاف إلى الاهتزازات التي تثيرها الحجارة الكبيرة التي تستخف بالبيك - آب. لم نكن

نتمايل، بل نقفز في كل الاتجاهات! وأخذ الحصى في القفز تكراراً على زجاجنا الأمامي. صلّيت، ويداي تقبضان على مسكة الباب، لأصل سالمة إلى القرية.

- استمعي إلى الموسيقى! ستجعلك تنسين قلقك! قال السائق.

لو أنه يعرف فقط أي قلق آخر يسكنني...

سارت بنا السيارة طيلة ساعات وساعات على إيقاع شكوى حسين محب. توجّب عليّ ان أحصي المرات التي أعاد فيها السائق لف الشريط... بدا وكأنه سكران بالموسيقى التي تعطيه، ولا شك، الشجاعة على مقاومة قوة الطبيعة. تمسّك بالمقود كالفارس على جواده، وواجه أقل انعطافة وعيناه مسمّرتان على الطريق المتعرّجة، كما لو أنه حفظ كل أفخاخها عن ظهر قلب. قال:

- الطبيعة التي خلقها الله قاسية جداً، إلا أنه، ولحسن الحظ، خلق من الرجال من هم أكثر مقاومة!

حسناً، فكّرت، لو أن ما يقوله صحيحاً فلا بد أن الله قد نسيني.

كلّما توغلنا في الوادي، كبرت كرة القلق في حلقي. كنت تعبة وجائعة وعطشى. غير أنني كنت، قبل كل شيء، خائفة. استهلكت في رأسي كل أفكار الألعاب الممكنة والتي يمكن

تخيّلها في محاولة مني لنسيان مصيبتي. وبقدر ما أخذنا نقترب من وادي اللاع، أخذ مصيري يبدو لي أكثر فأكثر غموضاً. وقد قُضي تماماً على أملي بالهروب.

لم تتغيّر خارجي. هذا الطرف الآخر من العالم... ما إن وصلت، وقد تحطّم ظهري من جراء الارتجاجات، حتى تعرّفت على المنازل الحجرية الخمسة، والساقية الصغيرة التي تجري عبر القرية، والنحلات التي تجني اللقاح من زهرة إلى زهرة، والأشجار على مدى النظر، وأولاد القرية الذين يستقون من النبع مالئين صفائحهم الصغيرة الصفراء. انتظرتنا سيدة عند عتبة أحد البيوت، وأحسست على الفور أنها تنظر إلي شزراً. لم تعانقني، ولا حتى قبلة صغيرة، ولا حتى ملاطفة. إنها والدته، حماتي الجديدة. عجوز وقبيحة، وبشرتها مجعّدة مثل جلد العظاءة. ينقصها سنّان من الأمام، فيما الأخرى جميعها ضربها السوس وسوّدها التبغ، وقد غطى شعرها وشاح أسود ورمادي. وبحركة من يدها أشارت إلي بالدخول. الداخل بسيط ومفروش بالكاد، ويتألف من أربع غرف وصالون ومطبخ صغير جداً. أما المرحاض، ففي العراء، وراء الأكمات.

التهمت، من دون تصنّع، الأرز واللحم الذي حضّرته الشقيقات. كنت ميتة من الجوع، إذ لم أبتلع شيئاً منذ رحلينا عن صنعاء. اجتمع الكبار، بعد الطعام، في جلسة قات. المزيد منها! وانضم مدعوون من الجوار إلى التجمّع. تكمّشت في زاويتي، ولزمت الصمت وأنا أنظر إليهم. بدا لدهشتي، أن ما من أحد

متفاجئ بصغر سني. وعلمت لاحقاً أن الزواج بفتيات صغيرات أمر غير مستبعد في الريف. لم أمثّل، إذاً، بالنسبة إليهم أي استثناء خاص. بل إن المثل القبلي يقول: «إذا تزوجت فتاة في التاسعة، فسيكون زواجك السعيد مضموناً».

دارت الأحاديث على قدم وساق بين الكبار.

- أصبحت الحياة غالية جداً في صنعاء. اشتكت ابنة حماي.

- سأعلّم الصغيرة، بدءاً من الغد، المباشرة في العمل هي أيضاً. زايدت حماتي العجوز من دون أن تلفظ اسمي. ثم إنني آمل في أنها جلبت نقوداً معها.

- انتهت نزوات الطفولة. سنظهر لها كيف تصبح امرأة، امرأة حقيقية!

عندما رحل الزوار مع غياب الشمس، أرشدوني إلى غرفتي. أذكر أنني شعرت بالارتياح الشديد لأنني سأتمكن أخيراً من نزع هذا الجلباب الكستنائي الذي ارتديه منذ العشية والذي أخذ يصبح كريه الرائحة حقاً. ما إن أُقفل الباب عليّ حتى أطلقت تنهيدة كبرى واستعجلت في تبديل ثيابي لارتدي قميصا قطنيا صغيراً أحمر جلبته من صنعاء. له رائحة منزلي، رائحة كامنة مطيّبة بالعود[1]. رائحة مألوفة تطمئن. فُرشت حصيرة طويلة على

(١) غالباً ما يُستخدم في اليمن صمغ خشب العود لتعطير داخل البيوت على شكل بخور يُحرق في حقّ صغير.

الأرض: سريري. وإلى جانبها قنديل زيت قديم للإنارة، يلقي بانعكاس نور شعلته على الجدار. لم أحتج حتى إلى إطفائه لأنام.

أخيراً!

تمنّيت لو أنني لا أستفيق أبداً. وعندما فُتح الباب بصخب، جفلت وأنا أظن أن الهواء قوي جدّاً هذه الليلة. بالكاد تمكّنت من فتح عيني لأحس بجسم رطب وأشْعَر يستند إليّ. نفخ أحدهم على القنديل وكان الليل مظلماً. ارتعدت. إنه هو! عرفته فوراً من رائحة السجائر والقات الكاسحة هذه. نتن الرائحة! تفوح منه رائحة الحيوان الوحشي! وشرع، من دون أن يتفوه بكلمة، في الاحتكاك بي.

- أرجوك، دعني وشأني! لهثت وأنا أرتجف.

- أنت زوجتي! وبدءاً من اليوم أنا من يقرّر. يجب أن ننام في السرير نفسه.

نهضت بقفزة واحدة، وأنا على استعداد للهرب، ونهض بدوره. عاينت، في الظلمة، خيطاً من النور عبر الباب الذي بقي مشقوقاً. إنه، ولا شك، نور النجوم والقمر. ومن دون أن أتردد ثانية واحدة، انطلقت صوب الفناء، لكنه لحقني.

النجدة! النجدة! صحت وأنا أنتحب.

تَردّد صدى صوتي في الليل، لكن كما لو أنني أصرخ في فراغ. ركضت في كل الاتجاهات حتى ضاق نفسي. دخلت إلى

أول غرفة، لكنني هربت منها ما إن دخل إليها. ركضت من دون أن التفت إلى الوراء. تعثّرت بشيء، قطعة زجاج ربما، استعجلت في النهوض لأتابع جريي. قطعت ذراعان عليّ اندفاعتي، لتنتهيا إلى جرّي إلى الغرفة وسحقي على الحصير. تسمّرت في الأرض كالمشلولة.

- أمي! أمي! رجوت، آملة في الحصول على بعض التضامن النسائي.

وما من جواب، فصرخت من جديد:

- إليّ! إليّ!

نزع جلبابه الأبيض، وتكومت على نفسي لأحميها. لكنه أخذ يشد على عباءتي، وهو يطلب مني أن أتعرّى. ثم مرّر يديه الخشنتين على جسمي، وألصق شفتيه بشفتيّ. طفحت منه رائحة كريهة جداً. مزيج من التبغ والبصل.

- إرحل! سأخبر أبي! شرعت في الأنين، وأنا أحاول أن أبتعد من جديد.

- في وسعكِ ان تخبري والدك بما شئتِ. لقد وقّع على عقد الزواج، وأعطاني موافقته على الزواج منك.

- لا يحقّ لك!

- نجود، أنت زوجتي!

- النجدة! النجدة!

أخذ عندها في السخرية:

- أكرر لك، أنت زوجتي. عليك الآن أن تفعلي ما أريده! مفهوم؟

أحسست فجأة كما لو أن إعصارا تلقّفني، وأنني عرضة للتقاذف من صخب إلى آخر. انقضت علي الصاعقة وفقدت القدرة على المقاومة. هزيم رعد، ثم آخر، وآخر أيضاً. انهار بي الكون. عند هذا الحد اجتاح حريق أعمق أعماق جسمي. حريق لم يسبق لي أن أحسست به يوماً. عبثاً حاولت الصياح، إذ لم يهب أحد لنجدتي. أنه لموجع جداً، جداً. وأنا لوحدي في مواجهة الألم.

- آخ! صحت في تنهيدة أخيرة.

وأعتقد أنني عند هذا الحد فقدت الوعي.

أنا وشدا

٥

شدا

٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٨

أخذت شدا تجوب فناء المحكمة وهاتفها المحمول ملتصق بأذنها.

- علينا أن نفعل كل شيء لانتزاع نجود من براثن زوجها! يجب إطلاع الصحافة، والاتحادات النسائية... سمعتها تصيح تعجّباً، قبل أن تقفل الخط وتنحني صوبي وتقرفص لتصبح على مستواي.

- لا تخافي يا نجود، سأساعدك على الطلاق!

لم يسبق لأحد أبداً أن رعاني إلى هذا الحد.

شدا محامية. يُقال إنها محامية مهمة جداً، وواحدة من أكبر محامي اليمن، وهي تكافح من أجل حقوق النساء[١]. تطلّعتُ

---

(١) برزت شدا ناصر، في ١٩٩٩، في دفاعها عن أمينة علي عبد اللطيف، التي زُوّجت في سن العاشرة وحُكِم عليه بالموت بعد اتهامها بقتل زوجها. وفي أعقاب تعبئة لم يسبق لها مثيل، تم في النهاية، في ٢٠٠٥، تعليق الحكم بالإعدام. وخرجت أمينة إلى الحرية، بعد نحو عشرة أعوام قضتها وراء القضبان، لكنها تعيش مختبئة خوفاً من انتقام أهل زوجها.

إليها بإعجاب وأنا أحملق بها. جميلة هي شدا، صوتها حاد بعض الشيء، وإذا كانت تتكلّم بسرعة فلأنها حتماً مستعجلة. تفوح منها رائحة عطر زكي، أشبه برائحة زهرة الياسمين. أحببتها منذ أن وقعت عليها عيناي. وجهها، على عكس وجوه نساء عائلتي، غير مغطى، ومن النادر عدم وضع النقاب في اليمن. ترتدي شدا كساء حريرياً طويلاً أسود، وتكتفي بأن تضع على رأسها وشاحاً ملوناً. بشرتها منيرة، وأحمر شفاهها يعطيها مظهر السيدة الأنيقة، كما في الافلام. ثم إنها، بنظارتها الشمسية تشبه نجمة سينمائية. يا له من تناقض مع جميع النساء المحجبات اللواتي نلتقيهن في الشوارع!

- لا يوجد ما تخافينه معي. قالت وهي تداعب وجهي بحركة مطمئنة.

هي التي جاءت إليّ، هذا الصباح، ما إن تعرّفت عليّ. حُكي لها عني في المحكمة، بعد العودة من عطلة نهاية الأسبوع. قلبتها قصتي رأساً على عقب، فسارعت إلى إلغاء كل مواعيدها الأخرى. وجعلت القاضي يعدها بإبلاغها فوراً بعودتي. أرادت أن تراني، بأي ثمن.

- عذراً، هل أنت الفتاة الصغيرة التي جاءت تطلب الطلاق؟ بادرتني بالسؤال وهي تناديني في الباحة التي تؤدي إلى المحكمة.

- نعم، هذه أنا. أجبتها.

- يا إلهي! اتبعيني.. يجب قطعاً ان نتحدّث...

حصلت أمور كثيرة في الأيام الأخيرة. ولا يزال يصيبني الدوار من جرائها. طيلة عطلة نهاية الاسبوع - الخميس والجمعة في اليمن - عاملني القاضي عبد الواحد وزوجته بلطف لم أتوقّعه. أمكنني الحصول على ألعاب، وأطباق شهية، وحمامات ماء ساخنة، وملاطفة قبل النوم، مثل الأولاد الحقيقيين! حتى أنني حصلت، في المنزل، على الإذن بخلع حجاب المرأة المتزوجة الذي كانت حماتي تجبرني على تسويته على رأسي كلما انزلق. يا لها من سعادة ألا أخشى ضربات القضيب، ألا أرتجف لفكرة ذهابي إلى النوم، ألا أجفل عند أدنى ضجة باب يصفق! غير أنه، بالرغم من كل هذه العناية، بقيت لياليّ مضطربة. فما أن أغفو حتى يخالجني انطباع بأن الإعصار يتربّص بي، وبوجود خطر بأن يفتح الباب من جديد إذا أغمضت عيني وقتاً أكثر من اللازم، فيعود المسخ... يا للخوف، يا للعذاب! يقول القاضي عبد الواحد إن هذا طبيعي وإنه يلزمني الوقت لأنسى كل هذا العذاب!

جاءت العودة إلى الواقع صعبة، عندما أعادني يوم السبت صباحاً إلى المحكمة. كنا، بحلول الساعة التاسعة، قد أصبحنا في مكتبه جالسين برفقة القاضيين الآخرين، عبدو ومحمد الغازي، اللذين ابتسما لي بلطف لدى وصولي. نعم، ولكن قلقاً كبيراً كان ينتاب محمد الغازي. قال لي:

- يصعب، بحسب القانون اليمني، رفع شكوى على والدكِ وزوجكِ.

- ولماذا إذاً؟

- الأمر معقّد بعض الشيء لبنت في عمرك. يصعب شرحه.

ثم أورد عقبات كثيرة. فأنا، على غرار الكثيرين من الأولاد الذين يولدون في القرى، لا أحمل بطاقة هوية، ولا حتى شهادة ميلاد. وأنا صغيرة جداً على الشروع في إجراءات قانونية... ثمة مقدار من الأسباب التي يسهل على رجل مثل محمد الغازي أن يفهمها، ولكن ليس أنا. غير أنه عليّ أن أرضخ للنظر إلى الجانب الجيد من الأمور. فأنا على الأقل وقعت على قضاة لطفاء، على استعداد لمساعدتي. فلا يوجد، في النهاية، ما يجبرهم على الاهتمام بي. ويمكنهم، مثل الكثيرين غيرهم، تجاهل طلبي، ونصحي بالعودة إلى منزلي والقيام بواجباتي كزوجة. وقد تم، في الواقع، التوقيع على عقد، وافق عليه رجال عائلتي بالإجماع. وهو قائم، بحسب التقليد اليمني.

- علينا التحرّك بسرعة في هذه المرحلة. تابع محمد الغازي متوجهاً إلى زميليه. أقترح ان نضع والد نجود وزوجها في التوقيف الاحتياطي. فمن الأفضل لهما أن يكونا في السجن على أن يبقيا طليقين، إذا أردنا أن نحميها.

السجن! إنه عقاب جسيم جداً. هل سيسامحني أبي؟

أحسست فجأة بالخجل والذنب يتآكلانني. يا له من إحراج عندما طلبوا مني مرافقة الجندي الذي سيوقفهما ليتمكن من تعيين مكان العنوان! فعائلتي لم ترني طيلة عطلة نهاية الأسبوع، ولا بد أنهم يعتقدون أنني هربت إلى الأبد على غرار شقيقي فارس. لم أرد أن أتخيّل حتى منظر أمي عندما يشرع أشقائي وشقيقاتي الصغار في طلب الخبز للفطور! أضف إلى ذلك أنني أتذكر أنه، قبل وقت قليل على هربي، مرض والدي وأخذ يبصق دماً. فهل يمكنه أن يصمد في السجن؟ وإذا مات، سألوم نفسي طوال العمر...

غير أنني لم أملك الخيار. عندما يتألم اللطفاء، تجب معاقبة الأشرار، حسبما شرح لي عبدو. صعدت عندها في سيارة الجندي، ولما وصلنا إلى البيت وجدنا الباب موصداً بإحكام، فشعرت بانشراح غريب. وبعد ذلك ببضع ساعات، عندما ذهب الجندي من جديد إلى هناك، لم أعد في حاجة إلى مرافقته.

تقرر في الليلة نفسها وضعي في مكان آمن. لا يوجد في اليمن مأوى لاستضافة فتيات مثلي. ولا يمكنني كذلك البقاء إلى الأبد عند عبد الواحد الذي كان لطيفاً جداً معي.

- من هو خالك المفضّل؟ سألني أحد القضاة.

خالي المفضل؟ لم يمكنني التفكير بعد إمعان إلا بشوعي، شقيق أمي، وهو جندي سابق في الجيش اليمني، طويل وضخم

البنية، متقاعد، ويمتلك سلطة ما على عائلتي. يعيش في بيت بوس، وهو حيّ آخر بعيد عنّا، مع زوجتيه وأولاده السبعة. صحيح أنه لم يعارض زواجي، لكنه يجسّد ما يشبه النظام، وهو، على الأقل، لا يضرب بناته.

شوعي ليس ثرثاراً، وهو ما يناسبني تماماً. وقد تحاشى بالتالي أن يطرح عليّ الكثير من الأسئلة، وتركني ألعب مع أنسبائي. أخذت، قبل أن أنام في المساء، أشكر ربّي على أنه لم يدع شوعي يعاتبني على جرأتي، ولتحاشيه كذلك الحديث عن هربي. ووجدته، في العمق، متضايقاً مثلي من هذه القصة.

بدت لي الأيام الثلاثة التي تلت طويلة ومتكرّرة. أمضيت معظم وقتي في المحكمة، أملاً مني بمعجزة، وبحل غير متوقع. غير أن الأفق، وللأسف، لم يكن واضحاً جداً. وعدني القضاة بفعل كل شيء لمحاولة منحي الطلاق، لكن يلزمهم الوقت. الغريب، أنني لكثرة ما ترددت على هذه الباحة الكبيرة المكتظة بالناس، انتهيت إلى التعوّد على هذا الحشد الذي كان له وقع شديد عليّ في البداية. وأمكنني حتى أن أتعرّف من بعيد إلى بائعي الشاي وعصير الفاكهة الصغيرين. وينشغل الولد الذي يحمل الميزان في وزن الزوّار الأقل استعجالاً، ويحصل أحياناً أن أوجه إليه ابتسامة تشجيع. غير أنني، لدى كل عودة لي من المحكمة، أصاب بانقباض في الصدر. كم مرّة سأضطر إلى الانتقال إلى هنا قبل أن أتمكن

من العودة فتاة صغيرة مثل الأخريات؟ سبق لعبدو أن حذّرني: حالتي استثنائية. لكن كيف يتصرف القضاة في مواجهة حالة استثنائية؟ لم أملك أدنى فكرة.

أعتقد أنني وجدت الجواب من جهة شدا، المحامية الجميلة صاحبة النظارة الشمسية. أمكنني أن أرى، عندما جانبتني هذا الصباح، مدى التأثر الذي نظرت به إليّ، قبل أن تهتف متعجبة: «يا إلهي!». ثم نظرت إلى ساعتها، وفتحت مفكرتها، وقلبت رأساً على عقب برنامج عملها الذي بدا مليئاً جداً. ثم انصرفت إلى الاتصال بأقاربها، وأصدقائها، وزملائها الواحد تلو الآخر... «علي الاهتمام بقضية مهمة، مهمة جداً»، سمعتها تقول تكراراً. يبد أن هذه المرأة تمتلك احتياطياً لا ينضب من الصبر! عبد الواحد على حق! انها محامية مؤثرة. لا بد وأنها تمتلك الكثير من السلطة. ولا يكف هاتفها المحمول عن الرنين. وجميع الناس الذين يلتقون بها يحيّونها دوماً بتهذيب كبير.

- نجود، أنت مثل ابنتي! لن أتخلّى عنك! همستْ في صميم أذني.

بدأت أصدّقها، فما من سبب يدفع بهذه المرأة إلى الكذب. أشعر بحال جيدة مع شدا، ويتكوّن لدي انطباع بقربها أنني في أمان. تعرف إيجاد الكلمات الصحيحة، وصوتها الشادي يؤاسيني. أعادت إلي بعض الثقة في الحياة. يمكن للعالم أن ينهار، وأعرف أنها ستساندني. أشعر معها، وللمرة الأولى، بهذا

العطف الأمومي الذي لم تعرف والدتي، أو بالأحرى لم تتمكن من إعطائي إيّاه وقد انشغلتْ كثيراً بكل الهموم العائلية.

بقي هناك سؤال يدغدغني...

- شدا؟ تمتمت بخجل.

- نعم، نجود؟

- أيمكنني أن أسألك شيئاً؟

- بالتأكيد!

- أيمكنك أن تعديني بأنني لن أعود أبداً إلى زوجي؟

- إن شاء الله، يا نجود. سأعمل كل ما في وسعي لمنعه من إيلامك من جديد. كل شيء سيكون على ما يرام. على ما يرام. لكن...

- لكن ماذا؟

- عليكِ أن تكوني قوية، لأن الأمر قد يستغرق وقتاً...

- كم من الوقت؟

- لا تفكّري بالأمر في الوقت الحاضر. قولي لنفسك إن الأصعب قد مرّ. الأصعب هو أن تمتلكي القوة على الهرب، وأنت قد نجحت في هذا العمل الباهر!

رسمت شدا، حيال تنهيدتي، ابتسامة على وجهها وهي

تربّت على رأسي. إنها طويلة جداً ونحيلة؛ وهي تثير إعجابي كثيراً.

- وأنا، أيمكنني أن أطرح عليك سؤالا؟ تابعتْ.

- نعم...

- كيف واتتك الشجاعة للهرب إلى المحكمة؟

- الشجاعة في الهرب؟ ما عدت أستطيع تحمّل أذاه... ما عدت أستطيع...

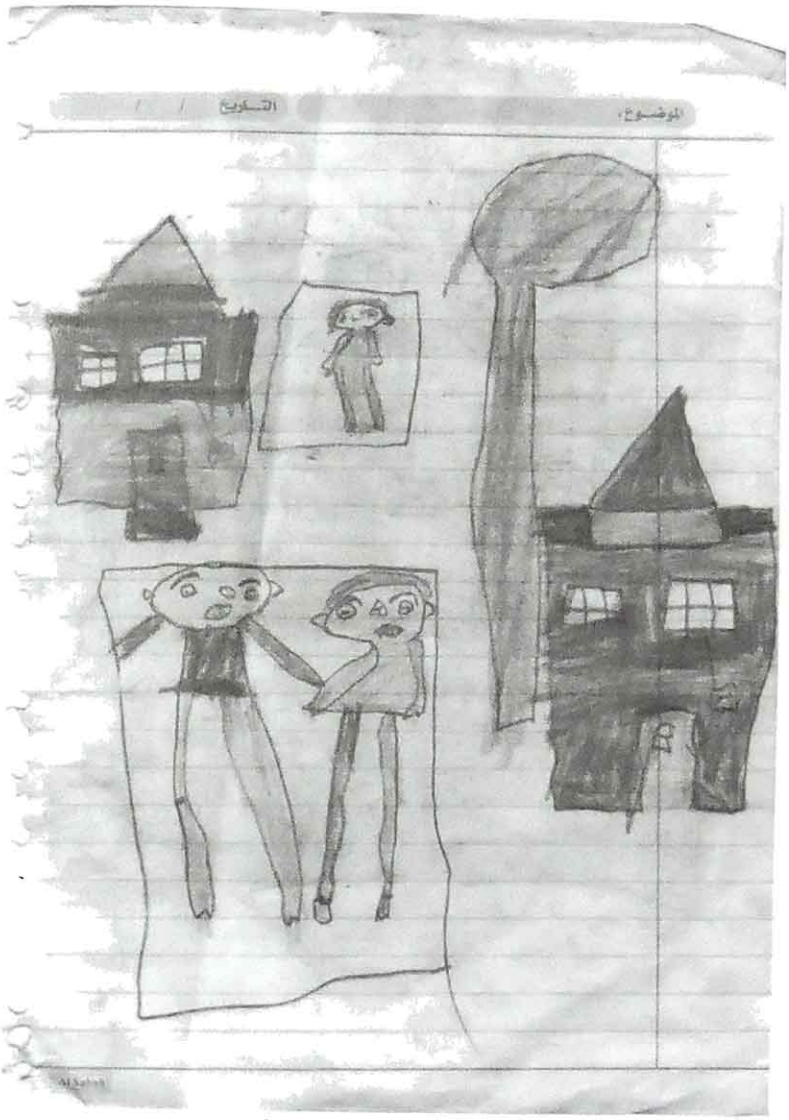

من رسوم نجود علي

٦

الهروب

أصبحت الحياة لا تُطاق في خارجي. تعذّبت بصمت وقد تنازعني الخجل والألم. إلى من أتحدّث عن كل تلك الأمور الكريهة التي ينزلها بي يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة؟ وقد أدركت في الواقع، منذ الليلة الأولى، أن ما من شيء سيستمر مثل قبل.

مبروك! مبروك!

ربّتت حماتي على وجهي لإيقاظي، وعيناها مثبتتان على جسمي الصغير العاري. أراها كما لو أننا بالأمس. غمر نور الصباح الغرفة، ومن البعيد سمعت صياح ديك. تعرّفت من وراء كتفها على ابنة حماي، تلك التي قامت بالرحلة معنا. لا أزال أتصبب عرقاً. حملقتُ، ورأيت فوضى غرفة النوم. تدحرج القنديل حتى الباب. ثوبي الكستنائي مرمي على الأرض كممسحة قديمة. وهو، هنا، على الحصير ينام كالدب. يا للوحش! وعلى الشرشف المجعّد كلّيا، هذا الخيط من الدم...

- مبروك! زايدت ابنة حماي.

حملقتْ، بابتسامة نصفية، بالأثر الأحمر، وخرستُ كالمشلولة. انحنت حماتي صوبي وحملتني بين ذراعيها كالصرّة. لماذا لم تأتِ قبل ذلك، عندما احتجتُ لمساعدتها؟ فات الأوان الآن، على أي حال... إلا إذا كانت متواطئة بما أنزله للتو بي؟ دَفَعَتِ الباب برجلها، وهي تغرز أصابعها في ضلوعي، وذهبت بي إلى الحمّام، وهي قاعة ضيقة فيها مركن وسطل، وأخذت ترشّني بالماء. أوه، إنه بارد!

- مبروك! بادرت المرأتان معاً.

طنّ كلامهما في أذنيّ المتعبتين. وشعرت بنفسي صغيرة، صغيرة جداً، وفقدتُ السيطرة على جسمي وعلى حركاتي. شعرتُ بالبرد من الخارج، وأنا أحترق من الداخل. يوجد أمر متّسخ في داخلي. شعرتُ بالعطش كما شعرتُ بالغضب، ولم أتمكن من التعبير عنه. أمي، أنتِ أبعد من أن أطلب النجدة منكِ. أبي، لماذا زوّجتني؟ لماذا، لماذا أنا؟ ولماذا لم ينبئني أحد بما سيحصل لي؟ ما الذي فعلتُه لأستحق ذلك؟

أريد العودة إلى منزلي!

بعد ذلك ببضع ساعات، عندما استفاق أخيراً، أشحتُ بوجهي حتى لا ألتقي بنظراته. اطلقَ تنهيدة كبيرة، وتناول فطوره واختفى طول النهار. صلّيتُ، وأنا منكمشة على نفسي في الزاوية، إلى الله الكلّي القدرة ليأتي وينقذني. أحسست بالوجع

في كل أنحاء جسمي، وارتعبت لفكرة ان أقضي حياتي كلها إلى جانب هذا المسخ! إنه فخ، لقد سقطت في الفخ، ولا يمكنني الخلاص...

اضطررت إلى التأقلم سريعاً مع قواعد الحياة الجديدة. لا يحقّ لي مغادرة المنزل، ولا يحقّ لي جلب الماء من النبع، ولا يحقّ لي أن أشتكي، ولا يحقّ لي أن أقول «لا». أما المدرسة، فلا مجال للتفكير فيها. وأنا أموت مع ذلك رغبة في الجلوس على المقعد، أستمع إلى المعلمة تخبرنا قصصاً جديدة، وأصعد إلى اللوح لأكتب اسمي بالطبشورة البيضاء على اللوح الأسود الكبير.

أضحت خارجي، مسقط رأسي، غريبة عني. بات عليّ، خلال النهار في المنزل، أن أطيع أوامر حماتي: تقطيع الخضار، إطعام الدجاج، تحضير الشاي للزوار العابرين، تنظيف الأرض، جلي الصحون. ويستحيل، مهما انقطع نفسي في فرك الطناجر التي سوّدتها الدهون، أن أعيد إليها لونها الأصلي. فخرقُ الجلي ضاربة إلى اللون الرمادي ورائحتها كريهة. الذباب يدور من حولي. وعندما أتوقّف للحظة، تعمد حماتي إلى شدي بشعري بيديها المليئتين بالدهن. أصبحتُ في النهاية دبقة كالمطبخ، وأظافري سوداء كلّها.

طلبت، في صباح ما، الإذن بالذهاب للعب مع أبناء جيلي.

- أنتِ لستِ في عطلة هنا! قالت موبّخة.

- أرجوكِ، بضع دقائق فقط...

- لا مجال! لا يمكن لامرأة متزوجة أن تسمح لنفسها بمعاشرة أي كان. لم يعد ينقص إلا أن تلطخي سمعتنا. لسنا في العاصمة هنا! ففي خارجي يمكن معرفة كل شيء، ورؤية كل شيء، وسماع كل شيء. من مصلحتك إذاً أن تلزمي حدّك. لا تخاطري بنسيان ما قلته لكِ، مفهوم؟ وإلا سأخبر زوجك.

أما هو، فيخرج في الصباح ليعود قبيل غروب الشمس. وبعودته يُمدّ له الطعام على السفرة، ولا يساعد أبداً في رفع الصحون. وفي كلّ مرّة أراه، يتصاعد التوجّس نفسه من أعماق قلبي...

أدركُ، مع هبوط الليل، أن الأمر سيتكرر أيضاً وأيضاً. الوحشية نفسها. الحرق نفسه. الألم نفسه. الشدّة نفسها. الباب الذي يصفق، قنديل الزيت الذي يتدحرج على الأرض، الشراشف التي تتجعّد... «يا بنت!» هكذا يناديني بعنف قبل أن ينقض عليّ.

فهو لا يلفظ اسمي أبداً.

لم يشرع في ضربي إلا في اليوم الثالث. لم يطق أن أحاول مقاومته. عندما أحاول منعه، مع انطفاء النور، من النوم بجانبي على الحصير، يبدأ بضربي، بيديه في البداية، ثم بالقضيب. الرعد والصاعقة، أيضاً وأيضاً. وأمه تشجّعه. لا تكف تردد له، بصوتها الأجش، عندما يشتكي مني:

- اضربها أيضاً بقوة أكبر! عليها أن تسمع منك! إنها امرأتك!

- يا بنت! يتابع باطراد وهو يلاحقني.

- لا يحق لك! أقول منتحبة.

- تتعبينني بنواحك. لم أتزوجك لأسمعك تتباكين باستمرار! يصيح وهو يبيّن أسنانه الكبيرة المصفرّة.

أتعذّب لمخاطبته إياي بهذه النبرة. فهو يستهزئ بي في العلن. إنه مزدرٍ. عشت في خوف دائم من ضربات جديدة بالقضيب، ومن الصفعات. بل بلغ به الأمر أن استخدم الضرب بالقبضة. وكل يوم، ازرقاق جديد على الظهر، وجروح جديدة على الذراع. وهذا الحريق في البطن... شعرت بأنني متسخة كلّياً. كنت اسمع الجارات، لدى زيارتهن حماتي، يتهامسن في ما بينهن ويشرن إلي أحياناً بالأصبع. ما الذي يخبرن بعضهن البعض به يا تُرى؟

كنت، ما إن تسنح لي الفرصة، أنكمش على نفسي في إحدى الزوايا، حائرة وضائعة. تصطك أسناني وأنا أفكّر في الليل الذي يقترب. كنت وحيدة، وحيدة جداً. ما من أحد أفتح له قلبي، وما من أحد أتكلّم معه. أكرهه! أكرههم كرهاً شديداً! جميعهم يثيرون اشمئزازي! هل على جميع الفتيات المتزوجات المرور بهذا العذاب نفسه؟ أو أنني الوحيدة التي ينزل بها هذا التعذيب؟ لا أكن أي حب لهذا الغريب. هل أحس أهلي بالحب

واحدهما للآخر؟ فمعه فهمت وحسب المعنى الحقيقي لكلمة «قسوة».

مرّت أيام وليالٍ على هذا المنوال. عشرة، عشرون، ثلاثون؟ لم أعد أذكر بالضبط. أخذت استغرق وقتاً أطول فأطول للنوم في المساء. وفي الليل، لا أعود أعرف النعاس في كل مرة يأتي ليفعل معي أموره الشنيعة، وأنعس في النهار. أخذت، وأنا تعبة ومتحللة وعاجزة، أفقد مفهوم الوقت. اشتقت إلى صنعاء واشتقت إلى المدرسة أيضا؛ وإلى أشقائي وشقيقاتي: بهلوانيات عبدو المستمرّة، وتهريجات مراد، ومزحات منى في أيامها الحلوة، وتهويدات الصغيرة روضة. أخذت أفكّر أكثر فأكثر بهيفا وأنا آمل في ألا يزوّجوها هي أيضاً. أخذتُ، على مرّ الأيام، أنسى تفاصيل وجوههم. ووجدت صعوبة في تذكر ألوان بشراتهم، وأشكال أنوفهم، وغضون غمّازاتهم. حان الوقت لأعود وأراهم!

أخذت في كل صباح أنتحب وأنا أتوسّل إعادتي إلى أهلي. لم أملك أي وسيلة للاتصال بهم، فلا وجود للكهرباء في خارجي، ناهيك بالهاتف. هنا، لا تعبر الطائرات الأجواء، ولا باصات، ولا سيارات. كان بإمكاني أن أبعث لهم برسالة، غير أنني لا أحسن كتابة الكثير ما عدا اسمي وبعض الكلمات البسيطة جدا. عليّ أن أعود إلى صنعاء بأي ثمن. أريد العودة إلى بيتي!

أهرب؟ فكّرت بالأمر مرات عدّة. ولكن إلى أين أذهب؟ فأنا لا أعرف أحداً في القرية، ويصعب بالتالي أن ألجأ إلى أحد، أو أتوسّل مسافراً على ظهر حمار أن ينقذني... فخارجي، القرية التي شهدت ولادتي، أصبحت بالنسبة إلي سجناً.

في صباح أحد الأيام، ولشدة سماعه بكائي، أعلن أنه يسمح لي بالذهاب لزيارة أهلي. أخيراً! سيرافقني، وينتظرني عند شقيقه. وأصرّ على أن نعود بعد ذلك إلى هنا. واستعجلتُ في جمع حوائجي قبل أن يبدّل رأيه.

بدت لي العودة أسرع من الذهاب. غير أنني في كل مرة يغلبني فيها النعاس تثير الكوابيس نفسها الاضطراب في نومي: بقعة الدم على الشرشف.. وجه حماتي المنحني صوبي.. سطل الماء... فأفيق فوراً جافلة. كلا! لن أعود أبداً، أبداً! خارجي، الطرف الآخر للعالم... لا أريد أن أطأها مرة أخرى أبداً!

- من غير الوارد أن تتركي زوجك!

في صنعاء، جاءت ردة فعل والدي غير منتظرة وراديكالية، فوضعت حداً سريعاً لفرحة اللقاء. والدتي، من جهتها، لم تنطق بكلمة، واكتفت بالتمتمة، وهي ترفع ذراعيها إلى السماء:

- هكذا هي الحياة يا نجود. على جميع النساء المرور بذلك. جميعنا مررنا بالأمر نفسه...

لكن لماذا لم تقل لي شيئاً؟ لماذا لم تنبهني؟ والآن، وقد

تم الزواج، علقتُ في الفخ، وأصبحت عاجزة عن العودة إلى الوراء. ومهما أخبرتُ أهلي عن آلام الليل، والضرب والحريق، وكل تلك الأمور الشخصية والرهيبة التي أخجل من الحديث عنها، فإنهما يكرّران أن من واجبي أن أعيش معه.

أصررت:

- لا أحبه! إنه يؤذيني ويجبرني على فعل أمور كريهة تثير غثياني. وهو ليس لطيفاً معي!

وكرر والدي:

- نجود، أنت الآن امرأة متزوجة وعليك البقاء مع زوجك!

- كلا، لا أريد! أريد العودة إلى المنزل!

- مستحيل! قال قاطعاً.

- أرجوك... أرجوك!

- إنها مسألة شرف، أتسمعينني؟

- لكن...

- عليكِ أن تصغي إلى ما أقوله لك!

- أبي، أنا...

- إذا طلّقتِ زوجك سيقتلني أشقائي وأنسبائي! الشرف قبل أي شيء. الشرف! هل تفهمين؟

كلا لم أفهم، ولا يمكنني أن أفهم. لا يكفي أنه يؤذيني، بل ها إن عائلتي أنا تدافع عنه. كل ذلك من أجل مسألة... مسألة ماذا إذاً؟ الشرف! لكن ماذا تعنيه بالتحديد هذه الكلمة التي لا يكفّون عن استخدامها؟ أعيتني الحيلة. كانت هيفا، بعينيها المستديرتين، لا تفقه أكثر مني ما يحصل معي. دسّت يدها في يدي لمّا رأتني أجهش بالبكاء. إنها طريقتها في القول أنها تساندني. فجأة خطرت ببالي من جديد فكرة رهيبة: وماذا لو إنهم يفكّرون في تزويجها هي أيضا؟ هيفا، شقيقتي الصغيرة، شقيقتي الجميلة الصغيرة... شرط أن لا يجعلها حظها تعيش أبداً هذا الكابوس.

حاولت منى، مرات عدة، الدفاع عني، غير أن خجلها تغلّب عليها. من كان سيستمع إليها، على أي حال؟ فهنا، الكلمة الأخيرة دوماً للأكبر سنّا، وللرجال. مسكينة منى! أدركتُ أنه لا يمكنني إلا الاتكال على نفسي إذا أردت التخلّص من ورطتي.

الوقت داهم، وعليّ أن أجد حلاً قبل أن يأتي لأخذي. استطعتُ أن أنتزع منه الموافقة على البقاء بعض الوقت عند أهلي. غير أنني أدور في حلقة مفرغة من دون أن تلوح في الأفق بارقة إنقاذ حقيقية. «على نجود أن تبقى إلى جانب زوجها» كرّر والدي. وما إن ابتعد حتى اندفعتُ للحديث عن الأمر مع أمي. بكتْ، وقالت إنها تشتاق إليّ، ولكن لا يسعها القيام بشيء من أجلي.

لديّ الحق في الخوف. جاء، منذ اليوم التالي لزيارتنا، ليذكّرني بواجباتي كزوجة. حاولت معارضة ذلك لكن من دون جدوى. ومن كثرة ما ألحّيت تم الوصول أخيراً إلى ما يشبه التسوية. وافق على بقائي بضعة أسابيع إضافية في صنعاء، لكن بشرط أن أتبعه للإقامة مؤقتاً عند عمه. فهو لا يثق بي ويخشى أن أهرب إذا بقيتُ لفترة أطول مما يجب عند أهلي. وعاد الجحيم ثانية أكثر من قبل...

- متى ستكفّين عن التباكي الدائم؟ الأمر أصبح متعباً! اشتكى في أحد الأيام، وعيناه حانقتان، وهو يلوّح بقبضته.

- عندما تدعني أعود إلى أهلي! أجبت، وأنا أخفي وجهي بين يديّ.

انتهى، في مواجهة عنادي، إلى منحي مهلة جديدة وحذّرني:

- لكنها المرّة الأخيرة.

أدركتُ، بعودتي إلى المنزل، أنه لم يتبقّ أمامي الكثير من الوقت لأتحرّك إذا أردت التخلّص من هذا الرجل وتفادي الكابوس لدى عودتي إلى خارجي. مرّت خمسة أيام صعبة لم أكف أثناءها عن الارتطام بالجدران. فلا والدي، ولا أشقائي، ولا أعمامي على استعداد للاستماع إليّ.

ومن فرط ما طرقت جميع الأبواب، أملاً مني في العثور على أذن صاغية، انتهى بي المطاف عند دولة، زوجة والدي

الثانية، التي تقيم مع أولادها الخمسة في شقة صغيرة في الطابق الأول من مبنى قديم في آخر طريق مسدود، في الجهة المعاكسة تماماً من شارعنا. صعدتُ الدرج، وقد انتابني الخوف من إعادتي إلى خارجي؛ وسددت أنفي كي لا أشم رائحة النتانة الخبيثة المخلوطة برائحة النفايات والبراز المتفلتة من المراحيض المشتركة بين كل السكان. فتحت لي دولة الباب بابتسامة عريضة وهي ترتدي ثوباً طويلاً أحمر وأسود، وقالت لي:

- نجود! يا لدهشتي لرؤيتك ثانية، أهلاً بك هنا!

أحببت دولة كثيراً. بشرتها جافة، ولها شعر طويل تعقده في ضفائر. طويلة القامة، نحيفة، وأجمل من أمي. لم توبخني دولة أبدا، فهي على الدوام تفيض صبراً! ومع ذلك لم تدلّل الحياة المرأة المسكينة. زُوّجت متأخرة، وهي في العشرين، من أبي الذي أهملها كلّيا، وتعلّمت ألاّ تعتمد إلا على نفسها. ويتطلب ابنها الأكبر، يحيى، الذي وُلد معوّقا ولا يستطيع السير، عناية خاصة. يمكن لأزماته العصبية أن تستغرق ساعات عدة. ودولة ذات كرم لا يُعقل بالرغم من فقرها المدقع الذي يجبرها على التسوّل في الشارع لدفع ايجار البيت البالغ ثمانية آلاف ريال[1] في الشهر ولشراء الخبز لأولادها.

دعتني للجلوس على سرير القش الكبير الذي يحتل نصف

(١) نحو ثلاثين يورو.

الغرفة، تماماً إلى جانب السخّان الصغير الذي تغلي فيه الماء. وغالباً ما حلّ الشاي محل الحليب في رضّاعة الصغار. وقد عُلقت على الجدران، بواسطة خطافات، أكياس بلاستيكية تُستخدم في حفظ الطعام، وقد بدت فارغة.

- نجود!.. تبدين مهمومة جداً.

علمتُ أنها من بين النادرين من أفراد عائلتي الذين عارضوا زواجي، لكن لم يشأ أحد الاستماع إليها. وهي، التي لم تبتسم لها الحياة، لديها ميل طبيعي صوب الأكثر حرماناً منها. أحسستُ بالثقة، وعرفت أن في وسعي أن أخبرها كل شيء.

- لدي الكثير لأخبرك إياه... أجبتها.

ثم فتحتُ لها قلبي.

قطّبتْ حاجبيها وهي تستمع إلى قصتي، وبدت مغتاظة جداً. وتوجهّتْ، وهي منشغلة البال، إلى السخّان، ثم سكبت الشاي المغلي في الكوب الوحيد الذي لم يكسره يحيى بعد. قدّمته لي وهي تقترب مني لتنظر مباشرة في عينيّ وتهمس:

- نجود... إذا لم يصغِ إليك أحد، فما عليك سوى التوجه إلى المحكمة!

- إلى أين؟

- إلى المحكمة!

المحكمة؟ المحكمة... نعم المحكمة! تراءت لي، كالومضة، صور القضاة بالعمامات، والمحامين الدائمي الاستعجال، ورجال بالجلباب الأبيض ونساء محجبات يأتون للشكوى من قصص عائلية معقدة، من سرقة وإرث. ها إنني أتذكّر المحكمة الآن. رأيتها على التلفاز في المسلسلات التي كنا نذهب، أنا وهيفا، لمشاهدتها عند الجيران. كان الممثلون يتحدثون بلغة عربية مختلفة عن لغة اليمن. أعتقدُ أنني أذكر، من لكنتهم، أن الأمر يتعلّق بمسلسل كويتي. وفي الصالة الكبرى، التي يتعاقب عليها المشتكون، كانت الجدران بيضاء، وعدة صفوف من المقاعد من الخشب الكستنائي تواجه القاضي. وكنا، في لحظة ما، نرى المجرمين يصلون في شاحنة صغيرة نوافذها مشبكة.

وواصلت دولة كلامها:

- المحكمة، بحسب معرفتي، المكان الوحيد الذي سيتم فيه الاستماع إليك. أطلبي رؤية القاضي فهو، في النهاية، ممثل الحكومة! يمتلك الكثير من السلطة. إنه عرّابنا جميعاً، ودوره مساعدة الضحايا.

أقنعتني دولة. وبدءاً من هذه اللحظة أصبح كل شيء واضحاً في ذهني. إذا لم يردْ أهلي مساعدتي، فسأتدّبر أمري لوحدي. تقرّر الأمر، وسأمضي فيه حتى النهاية. أنا مستعدة لتسلّق الجبال كي لا أنتهي، أيضاً وأيضاً، ممدّدة على هذا الحصير، لوحدي، في مواجهة هذا المسخ. ضمّيت دولة بقوة بين ذراعي وأنا أشكرها.

- نجود؟

- نعم؟

- خذي هذه، فقد تلزمك.

دسّت ٢٠٠ ريال[١] في باطن يدي. إنها كل ما نجحت في توفيره في هذا الصباح بالذات بعدما ذهبت للتسول عند تقاطع الطرق المجاور.

- شكراً يا دولة. شكراً!

استفقتُ في اليوم التالي أكثر حماسة من المعتاد، وفاجأت نفسي بحالتي الذهنية الجديدة. وكما في كل صباح، غسلت وجهي، وأدّيت صلاتي. أشعلت الموقد الصغير لأغلي ماء الشاي، ثم انتظرت بفارغ صبر أن تستفيق أمي، وأنا ألعب بعصبية بيديّ، بينما كان صوتي الداخلي يهتف بي: «نجود.. إجهدي ما أمكن في البقاء طبيعية لتفادي إثارة فضولها».

عندما فتحت أمي عينيها، بعد ذلك بقليل، وشرعت في حلّ الطرف الأيمن من وشاحها حيث تخبّئ في العادة نقودها، أدركت بارتياح أنني سأحظى ربما بفرصة تحقيق خطتي. لو أنها تعرف...

- قالت لي وهي تعطيني ١٥٠ ريالا: نجود.. إذهبي واشتري الخبز للفطور.

---

(١) بالكاد تعادل يورو واحداً.

- نعم يا أمي. أجبتها بإذعان.

أخذتُ المال، وارتديت كسائي ووضعت حجابي الأسود، وهو لباسي كامرأة متزوجة، وأقفلتُ الباب من ورائي بعناية. كانت أزقة الجوار لا تزال شبه فارغة. سلكت الشارع الأول إلى اليمين، ذلك الذي يؤدي إلى فرن الحيّ، حيث الخبز يقرقش بلطف ما إن يخرج من الفرن التقليدي. أرهفت أذني، وسمعت في البعيد غناء بائع قوارير الغاز الذي يجول في الشارع كل يوم ممتطياً دراجته ويجر خلفه عربة النقل الصغيرة.

اقتربتُ أكثر فأكثر من المخبز، وبات في إمكاني أن أشم رائحة الخبز الساخن الطيبة. وسرعان ما رأيت ظل نساء كثيرات من الحي وقد وقفن بالصف أمام التندور. إلا أنني، وفي اللحظة الأخيرة، بدّلت طريقي، وتوجّهت صوب الجادة الرئيسية للحي. «المحكمة.. ليس أمامك سوى التوجه إلى المحكمة».

ما إن بلغت الجادة الكبرى حتى تملكني فجأة الخوف من أن يتعرّف إليّ أحد. وماذا لو مرّ أحد أعمامي من هناك؟ ارتجفت من داخلي، وفي محاولة لحماية نفسي من الأنظار، رفعت أطراف وشاحي على وجهي كله تقريباً، ولم أترك سوى عينيّ تظهران. وهكذا كان النقاب، الذي لم أرد قط وضعه، مفيداً جداً. تفاديت الالتفات إلى الوراء مخافة أن يكون أحد يتبعني، وأمامي تنتظر الحافلات إلى جانب الرصيف. تعرّفتُ، أمام دكان البقالة الذي يبيع البالونات البلاستيكية، إلى الباص

الصغير الأصفر والأبيض الذي يمر كل يوم في الحيّ ويوصل الركاب إلى وسط المدينة، في مكان غير بعيد عن ساحة التحرير. «هيا، حان دورك في اللعب إذا أردت الطلاق»، شجعني صوتي الداخلي الصغير. وقفت بالصف على غرار الجميع، فيما الأولاد الذين في سني يرافقهم أهلهم. فأنا الفتاة الصغيرة الوحيدة التي تنتظر دورها لوحدها. خفضت عيني صوب الأرض لتفادي أن تُطرح عليّ الاسئلة، وامتلكني إحساس بأنني مراقبة. خشيت أن يعرف أحد ما أنوي القيام به، وتولّد لديّ انطباع رهيب بأن في الإمكان قراءة ذلك على جبيني.

نزل السائق عن مقعده ليأتي ويفتح الباب بعدما جعله ينزلق جانباً. وفجأة بدأ التدافع، وقد تضاربت نساء كثيرات بمرافقهن لاحتلال مكان في الداخل. تبعتُ التحرّك على الفور، وأنا غير آملة إلا بشيء واحد: الاختفاء من حيي بأسرع ما يمكن، قبل أن يبلغ أهلي الشرطة. اتخذت مكاناً لي في آخر الحافلة، على المقعد الخلفي، بين أمرأة متقدمة في السن وأخرى أصغر منها، وكلتاهما محجبتان من الرأس إلى أخمص القدم. وأنا، بحشر نفسي بين جسميهما البدينين، تفاديت أن تتم ملاحظتي من الشارع عبر النافذة. عليّ أن أتمتع بما يمكن من الحذر، ومن حسن الحظ أن أياً منهما لم تطرح عليّ أي سؤال.

ما إن أخذ المحرّك في الهدير حتى أحسست بقلبي يخفق بأقصى سرعة. أعدت فجأة التفكير بشقيقي فارس، وبما امتلكه

من شجاعة للفرار من المنزل قبل ذلك بأربع سنوات. وقد نجح في ذلك، وبالتالي لماذا لا أنجح أنا؟ لكن هل إنني أدرك حقّا ما أفعله؟ ماذا سيقول والدي لو انه رأى ابنته تصعد لوحدها في حافلة نقل مشترك؟ هل إنني أقوم بتلويث شرفه، كما يقول؟

أقفل الباب، وفات الأوان على تغيير رأيي. تطلّعت عبر النافذة إلى المدينة وهي تستعرض نفسها: السيارات التي تتراكم في زحمة الصباح، النساء المحجبات بالأسود، الباعة المتجولون وأيديهم ملأى بزهر الياسمين وعلب العلكة ومحارم الورق. كم أن صنعاء كبيرة وكثيفة السكان! ولو خُيّرتُ بين متاهة العاصمة المغبّرة وبين عزلة خارجي، لفضّلت صنعاء ألف مرّة!

- نهاية الخط! صاح السائق.

ها قد وصلنا! وما أن أخذ الباب في الانزلاق حتى اجتاحت ضوضاء الشارع الحافلة الصغيرة. أسرعت الراكبات في النزول ففعلتُ مثلهن، وتبعتهن وأنا أناول السائق بيد مرتجفة بعض القطع النقدية إيجار الرحلة. غير أنني لم أمتلك أي فكرة عن مكان وجود المحكمة، ولم أجرؤ على طرح السؤال على رفيقات رحلتي. اجتاحني القلق وأقعدني، وخشيت أن أضيع. تطلّعت يميناً ثم يساراً. وعند الإشارة الحمراء التي لا تعمل، انهمك شرطي في الحفاظ على ما يشبه النظام وسط السيارات الثائرة، ومنبهاتها تشتغل وهي تحاول التجاوز من كل الجهات. طرفت عيناي، وقد كادت تبهرني أشعة الشمس الصباحية القوية

التي تخترق السماء الزرقاء. يستحيل العبور في هذه الظروف إذ أنني لن أخرج حيّة. استندت إلى أحد الأعمدة وأنا أحاول استجماع أفكاري، وعندها وقع نظري على سيارة صفراء. لقد جاء الفرج!

إنها واحدة من التاكسيات الكثيرة التي تجوب المدينة من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح. ففي اليمن، ما إن يتمكن الصبي من بلوغ دوّاسة المسرّع حتى يبتاع له والده إجازة سوق أملاً منه في أن يحصل على عمل صغير كسائق للمساعدة في إطعام العائلة. وقد سبق لي أن أخذت سيارات أجرة كهذه للذهاب مع منى إلى باب اليمن.

قلت في نفسي إنهم لا بدّ يعرفون، على رؤوس أصابعهم، كل عناوين صنعاء. رفعت يدي في إشارة له بالتوقف. أن تصعد فتاة صغيرة لوحدها في التاكسي أمر غير ممكن، إلا أنني لا أبالي بما يُقال في الحالة التي وصلت إليها.

- أريد الذهاب إلى المحكمة! صحت بالسائق الذي حملق بي متعجّباً.

جلست في الخلف، وخرست طول الرحلة. كان السائق، وقد انتفخ وجهه بالقات، أبعد بكثير من أن يعرف إلىَ أي مدى أنا ممتنة له لعدم طرحه الاسئلة عليّ. فهو، ومن دون أن يعرف، متواطئ صامت مع هربي. ألصقت يدي اليمنى على بطني في محاولة صامتة للسيطرة على تنفّسي، وقد أقفلت عينيّ بعض الشيء.

- ها نحن قد وصلنا!

استخدم المكابح بحدّة لركن السيارة أمام السياج الذي تقع وراءه الباحة المؤدية إلى مبنى ضخم.. المحكمة! أشار إليه شرطي السير بالذهاب بأسرع ما يكون لأنه يسدّ المدخل، واستعجلت في النزول وأعطيته كل ما معي من مال. شعرت، بعد هذا الإنجاز، بأنني جريئة بطريقة جنونية. مذهولة ومرتعبة، هذا صحيح، ولكن كلّي جرأة! ستتغيّر حياتي كلّياً بمشيئة الله.

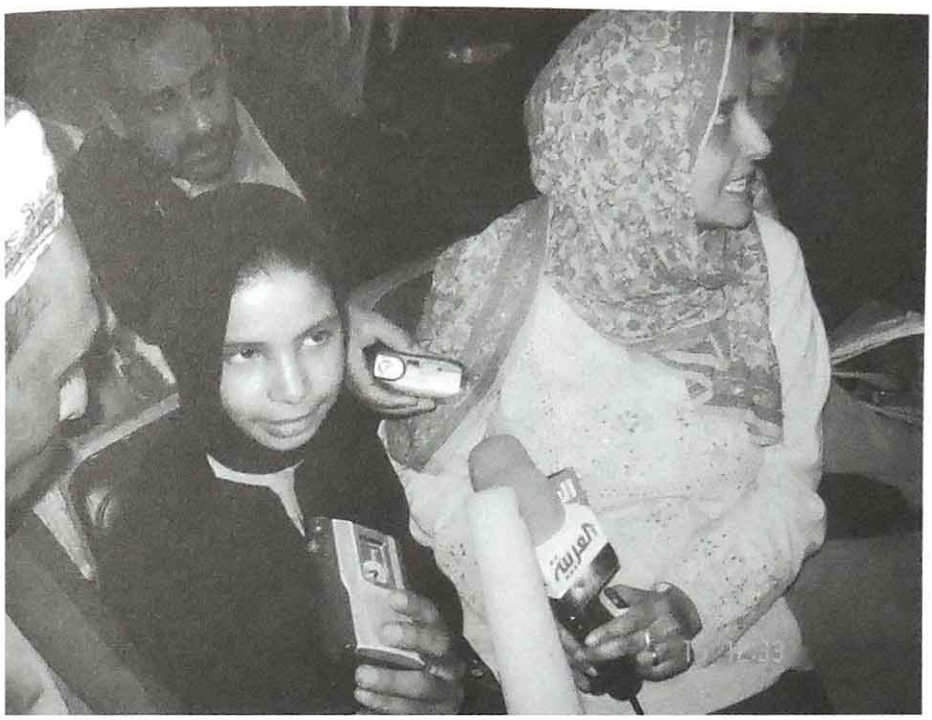

جاء صحافيون كثيرون لحضور جلستي

٧

الطلاق

١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٨

حلّ اليوم الموعود بأسرع من المتوقّع. يا للجمع الغفير! غصّت صالة الجلسة بالناس، ولهذا وقعه في النفس. ألم يأتِ كل هؤلاء الأشخاص الذي يملأون المقاعد المواجهة لمنصة القاضي إلا من أجلي؟ سبق لشدا أن نبهتني إلى أن التحضيرات قد تتطلب الكثير من الوقت، غير أن حملتها الإعلامية أعطت ثمارها. وبدت، في المحكمة التي عجت بالناس، متفاجئة مثلي! مرّ أسبوع، على ما أعتقد، منذ لقائنا الأول. أسبوع من الاتصالات بالصحف، والتلفزيونات، والاتحادات النسائية.... وها هي النتيجة: معجزة! لم أشاهد في حياتي هذا القدر من آلات التصوير والكاميرات، وتسارع تنفّسي. هل هو النقص في الأوكسيجين بسبب كل هذه الوجوه التي تطوّقني، أو أنها الوهلة وحسب؟ فأنا أتصبب عرقاً تحت حجابي الأسود.

- ابتسمي يا نجود! صاح أحد المصوّرين وهو يستخدم مرفقه ليشق طريقه إليّ.

ما إن اقترب منّي حتى تشكّل أمامي صفّ من آلات التصوير. وتوجد حتى كاميرات فيديو! احمرّيت خجلاً. ومضات الضوء هذه كلّها مخيفة. ثم أنني لم أميّز أحداً أعرفه وسط الحشد. يا لجميع هذه الوجوه التي تنظر إليّ... تعلّقتُ بشدا فرائحتها تطمئنني.. رائحة الياسمين التي باتت مألوفة. فشدا أمي الثانية!

- خالة شدا؟

- نعم يا نجود؟

- أنا خائفة.

- سنحقق ذلك. سنحقق ذلك. قالت هامسة.

لم أتخيّل أبداً أن أثير هذا القدر من الاهتمام. وها أنا، الضحية الصامتة طيلة أشهر طويلة جداً، احتل فجأة واجهة المسرح، في مواجهة جميع هؤلاء الصحافيين. فقد سبق لشدا أن وعدتني بأنهم لن يأتوا، وبأننا سنكون لوحدنا. ما الذي سأتمكن من اخبارهم إياه إذا شرعوا في طرح الأسئلة عليّ؟ لم يعلّمني أحد أبداً كيفية الرد على الأسئلة.

- شدا؟

- نعم يا نجود؟

- لدي انطباع، بوجود كل هذه الومضات، بأنني أُشبه...

جورج بوش، الأميركي الطويل القامة الذي غالباً ما نراه على التلفاز.

ابتسمتْ وقالت:

- لا تهتمّي...

تظاهرتُ بدوري بالابتسام، غير أنني كنت، في عمق أعماقي، أشبه بالمشلولة. شعرت بأنني غير قادرة على الحراك، وبانطباع غريب يشعرني بأن قدميّ مسمّرتين بالأرض. غير أنني أدرك أنني إذا كنت أشعر بالخوف فلأنني أمام علامة استفهام كبيرة. نسيت أن أسأل شدا كيف يحصل الطلاق حقيقة؟ لم يُحدثني أحد في المدرسة عن ذلك، مع أننا كنا، أنا وصديقتي ملاك، نخبر بعضنا كل شيء. لكن لا شيء في هذا الخصوص. ربما اعتقدنا أنه أمر مخصص للبالغين، وبأننا في الواقع صغيرات جداً على إشغال أنفسنا بقصص الأشخاص الكبار. وها أنا لا أعرف حتى إذا كانت المعلمات متزوجات أو مُطلّقات... لم أفكر أبداً في طرح هذا السؤال عليهن، وبالتالي، من الصعب جداً عليّ مقارنة قصتي بقصص النساء الأخريات من حولي.

ومثل ومضة تصيب الرأس بالوجع، طرأت على ذهني فكرة مخيفة: ماذا لو أن المسخ قال ببساطة «لا»؟ ماذا أجيب، حقيقة، إذا قرّر معارضة انفصالنا، وإذا شرع في تهديد القاضي بجنبيته يسانده أشقاؤه ورجال القرية؟ من يدري...

- اطمئني، كل شيء سيكون على ما يرام... تابعت شدا، وهي تربّت على كتفي.

رفعت رأسي لأنظر إليها بشكل أفضل. أعتقدُ أنها لم تنم كثيراً في الليلة السابقة. غرقت الجيوب الصغيرة تحت عينيها وهي تبدو منهكة. تضايقتُ لأن هذا كلّه بسببي. غير أنها، حتى وهي متعبة، لا تزال على القدر نفسه من الجمال والأناقة. سيدةُ مدينة حقيقية! وها أنا ألاحظ أن وشاحها تبدّل لونه، فهو وردي مثل قميصها، وهذا واحد من ألواني المفضلة! وقد ارتدت اليوم تنورة رمادية طويلة مع حذاء عالي الكعب. من حسن الحظ أنها هنا، إلى جانبي.

شاهدت فجأة وسط الحشد يداً تتحرّك في اتجاهي. إنه حامد ثابت، مراسل اليمن تايمز! أخيراً وجدت شخصاً أعرفه. فحامد هو صديقي الجديد. أخ حقيقي كبير وليس كمحمّد. إنه أحد معارف شدا، وهي التي عرّفتني عليه. طويل القامة، أسمر اللون، مستدير الوجه، عريض الكتفين، وقد أثّر لطفه في نفسي على الفور. لا أدري كم يبلغ بالتحديد من العمر، ولم أجرؤ أن أسأله. التقينا منذ بضعة أيام، في فناء المحكمة، في المكان نفسه تقريباً الذي التقتني فيه شدا قبل ذلك بوقت قليل.

سألني أولاً إذا كان يستطيع أن يلتقط صورة لي، ثم ذهبنا للجلوس في مطعم صغير على مقربة من المحكمة. أخرج قلمه ودفتر ملاحظاته وطرح عليّ الكثير من الأسئلة: عن أهلي، وعن زواجي، وعن خارجي، وعن الليلة الأولى... احمرّيت خجلاً وأنا أروي له قصتي. ولما شاهدت عبوسه في اللحظة التي كنت أصف فيها أثر الدم على الشرشف، أدركت أنه يتعاطف معي،

ولاحظت أنه يضرب الطاولة، خفية، بقلمه. لم أستطع إلا أن ألاحظ حزنه، بالرغم من أنه حاول إخفاء انفعالاته. كان ثائراً ومتألماً معي، فالأمر واضح. وقد تمتم:

- لكنكِ صغيرة جداً! كيف أمكنه؟...

شيء غريب. فأنا هذه المرة لم أبكِ. وتابعت، بعد بضع دقائق من الصمت:

- أردت اللعب في الخارج مثل جميع الأولاد من عمري. لكنه كان يضربني ويجبرني على العودة إلى الغرفة معه، والقيام بالأمور الشنيعة التي يطلبها مني... وهو يستخدم دوماً كلمات بذيئة للحديث معي...

كان دفتر حامد قد امتلأ عندما ودّعنا بعضنا. دوّن أصغر تفصيل، ونجح من ثم في الدخول إلى السجن لالتقاط صور لأبي وللمسخ بواسطة هاتفه المحمول. أخبرتني شدا، بعد ذلك بأيام، أن مقالته قد نُشرت وأحدثت ضجة كبيرة في اليمن. وحامد هو أول صحافي يكشف قصتي على الملأ. صحيح أنني تضايقت، لكنني أعرف اليوم أنني أدين له بالكثير.

شرعت الكاميرات في الصخب عند مدخل قاعة الجلسة.

اقشعر بدني وأنا أتعرّف إلى أبي و...المسخ يخفرهما جنديان بالقبعة الخضراء والبذة الزيتونية الخضراء. بَدَوَا ثائرين. وبمرور المسخ من أمامنا خفض نظره، ثم استدار فجأة صوب شدا وصرخ بها:

- أفخورة أنتِ بنفسكِ، ها؟ لم أحظَ باحتفال حقيقي لدى زواجي. لكنكِ، هنا، حضّرتِ لنا واحداً، ويا له من احتفال!

كيف يجرؤ على التحدث إليها بهذا الشكل؟ ها إن ما خشيتُ منه يحصل. حافظت شدا، بشكل مدهش، على هدوئها، وهي لم تخفض نظرها حتى. تتمتع هذه المرأة بقوة شكيمة تثير إعجابي. لا تحتاج إلى الإيماء بكل الاتجاهات للتعبير عن مشاعرها، وتكفي ملاحظة نظرتها لقراءة كل الازدراء الذي تشعر به نحوه.. نظرتها وحسب. لقد تعلّمت الكثير منها في هذه الأيام الأخيرة.

- لا تصغي إليه. قالت لي.

حاولت جاهدة السيطرة على مشاعري، مثل شدا، فلم استطع. على الأقل ليس بعد. ليس باليد حيلة، فقلبي يختلج. وأنا، بعد كل ما فعله بي، أكرهه جداً! رفعت رأسي والتقى نظري بنظر أبي. بدا مغتاظاً جداً. يجب أن أتوصل إلى الاستماع إلى صوت العقل، لكنني أخشى من أن يضمر لي الحقد مدى العمر. الشرف.. الشرف.. أخذت، برؤيتي وجهه، أدرك ما تعنيه هذه الكلمة المعقّدة. وأمكنني من خلال عينيه رؤية أنه غاضب ويشعر بالخزي في آن. أضمر له الحقد الكبير، غير أنني لم أتمكن من منع نفسي من الشفقة عليه. الأمر أقوى مني، فاحترام الرجال له أهميته هنا.

- يا للفوضى! صاح أحد رجال الأمن. لم أرَ أبداً محكمة مكتظة بهذا الشكل!

انطلقت ومضات آلات التصوير من جديد عندما وصل شخص مهم. إنه محمد الغازي كبير قضاة المحكمة. أمكنني ملاحظته من عمامته البيضاء المعقودة خلف رأسه. له شاربان رفيعان ولحية صغيرة ويرتدي سترة رمادية فوق جلبابه الأبيض. وقد شكّ عند خصره، بفخر، جنبيته، الخنجر التقليدي المعقوف لقبيلته.

لم يفارقه نظري وتابعت، لحظة بلحظة، أقل حركاته. نظرت إليه ينسل خلف منصته التي اجتاحتها ميكروفونات قنوات التلفزة والراديو. شاهدته يجلس ويضع ملفاته أمامه حتى يظن المرء أنه رئيس الجمهورية يستعد للكلام. انضم إليه القاضي عبدو الذي احتل مكانه على الأريكة إلى جانبه. من حسن الحظ أنهما هنا لمساندتي! وأنا لا أصدّق عينيّ بعد.

- بسم الله الرحمن الرحيم، أعلن عن افتتاح الجلسة. صاح الغازي وهو يدعونا إلى الاقتراب من منصته.

أشارت إلي شدا بأن أتبعها، وإلى يسارنا، تقدّم أبي والمسخ أيضا. أحسست بالحشد يعج من ورائنا. شعر جزء مني بالقوة بشكل مدهش، غير أن الجزء الآخر، الذي لا أتمكن من السيطرة عليه، مستعد لكل شيء ليتحوّل، في هذه اللحظة بالذات، إلى فأرة صغيرة. كتّفت يديّ وأنا أبذل قصارى جهدي للصمود.

وجاء دور القاضي عبدو في تناول الكلام:

- ها نحن في مواجهة قضية فتاة صغيرة زُوّجت من غير

رضاها. وما إن تم التوقيع، من دون معرفتها، على عقد الزواج، حتى أُخذت بالقوة إلى حاكمية الحجّة. وهناك، اعتدى عليها زوجها جنسياً، وهي لم تبلغ بعد، وغير مستعدة لهذا النوع من العلاقة. لم يكتفِ وحسب بالاعتداء عليها، بل إنه ضربها وأهانها أيضاً. وهي موجودة هنا اليوم لطلب الطلاق...

جاءت اللحظة الكبرى، تلك التي انتظرتها طويلاً. لحظة إنزال العقاب بالمذنبين. مثل أيام المدرسة، عندما ترسلنا المعلمة إلى الزاوية... المهم أن أربح على المسخ، المهم أن يوافق على الطلاق!

طرق محمد الغازي بعض الضربات بمطرقته الخشبية الصغيرة على المنصة.

- استمع إليّ جيّداً. قال موجهاً كلامه إلى الكائن الكريه الذي أبغضه أكثر من كل شيء: لقد تزوّجت هذه الفتاة الصغيرة منذ شهرين ونمت معها وضربتها. هل هذا صحيح؟ نعم أم لا؟

رفّ المسخ بعينيه، ثم أجاب:

- كلا، هذا ليس صحيحاً! فقد وافقت هي ووالدها على هذا الزواج.

هل سمعت جيّداً؟ كيف يجرؤ؟ يا له من كاذب! أكرهه!

- هل نمت معها؟ هل نمت معها؟ كرّر غازي.

اجتاح صمت ثقيل القاعة.

- كلا!

- هل ضربتها؟

- كلا... لم أكن قط عنيفاً معها.

تمسّكت برداء شدا. كيف يمكنه أن يكون واثقاً من نفسه إلى هذا الحد، بأسنانه الصفراء، وبنصف ابتسامته، وبشعره المورووب؟ كيف يمكنه بهذه السهولة إخبار هذا الكم من الأكاذيب؟ لا يمكنني أن أتركه على عنانه. يجب أن أقول شيئاً:

- إنه يكذب!

خربش القاضي بضع جمل على ورقة، ثم أدار نظره صوب والدي:

- هل أنت موافق على هذا الزواج؟

- نعم.

- ما عمر ابنتك؟

- ابنتي في الثالثة عشرة.

ثلاث عشرة سنة؟ لم يقل لي أحد أبداً أن عمري ثلاث عشرة سنة! منذ متى وعمري ثلاث عشرة سنة؟ اعتقدت أنني في التاسعة أو العاشرة على أبعد تقدير! لعبتُ بيديّ لأهدئ نفسي ثم أصغيت سمعاً من جديد.

- زوّجت ابنتي لأنني شعرت بالخوف. تابع والدي: خفت...

احمرّت عيناه دماً. خوف؟ خوف من ماذا؟

- زوجتها خوفاً من أن يتم اختطافها، مثل شقيقتيها الكبيرتين... تابع وهو يرفع قبضتيه صوب السماء: لقد سبق لرجل أن أخذ ابنتيّ! اختطفهما. وهذا زائد عن الحد وهو موجود الآن في السجن.

لم أفهم جيّداً ما الذي يرويه. أجوبته غامضة ومعقّدة. أما الأسئلة التي يطرحها القاضي فأصبحت أكثر فأكثر صعبة على الفهم. أجد، في سنّي، صعوبة في فهم هذه الرطانة. كلمات، كلمات، وأيضاً كلمات. لطيفة في البداية، ثم قاسية أشبه بالحجارة التي تُقذف على جدار، وتتطاير في كل اتجاه. أخذ الإيقاع في التسارع رويداً رويداً.. ارتفعت النبرة.. وسمعت المتهمين يتجادلان. الصالة تهدر، وقلبي يخفق بسرعة أكبر فأكبر. تمتم المسخ أمراً غير مفهوم لمحمد الغازي، الذي طرق على طاولته بضع مرات بمطرقته وأعلن:

- بناء على طلب الزوج، ستستمر الجلسة وراء أبواب مغلقة.

أشار إلينا لنتبعه إلى قاعة أخرى، بمنأى عن الناس. شعرت بهدوء أكبر بعيداً عن هذا الحشد. فهذه القصص هي، في النهاية، شخصية جداً. غير أن الأسئلة استؤنفت هناك وعليّ أن أصمد.

- سيّد فايز علي تامر، هل أتممت الزواج بالدخول نعم أو لا؟ سأل القاضي.

حبستُ أنفاسي.

- نعم، إلا أنني كنت لطيفاً جداً معها... راعيتها جداً... لم أضربها.

انفجر جوابه في وجهي، وأخرج ثانية كل الضربات، والمناكدات، والآلام. «كيف أنه لم يضربني؟ وكل هذه الكدمات على ذراعيّ، وهذه الدموع المسكوبة من جراء الوجع؟ عليك أن تردّي!» قال صوتي الصغير. وخرجت عن طوري وصحت:

- هذا باطل!

اتجهت الأنظار كلها صوبي، غير أنني كنت أول من اندهش بهذه التلقائية التي لا تشبهني.

عند هذه النقطة بالذات تتابع كل شيء سريعاً جداً. فقد اسودّ المسخ من الغضب، وقال إن والدي خدعه بكذبه في شأن عمري. وفقد والدي بدوره السيطرة على أعصابه، وقال إنه تم اقناعه بأن ينتظر أن أصبح أكبر سناً قبل أن يتمكن من لمسي. عند هذا الحد أعلن المسخ أنه على استعداد للموافقة على الطلاق، لكن بشرط: أن يعيد إليه والدي المهر! ردّ أبي بأنه لم يُدفع له أبداً أي مبلغ. وكأننا في سوق! كم؟ كيف؟ من يقول الحقيقة؟ من يكذب؟ اقترح أحدهم أن يُدفع له مبلغ خمسين ألف ريال[1]، إذا كان من شأن ذلك إقفال الملف. صرتُ في ضياع.. فليتم وضع حد لكل هذه القصص! ولأترك بسلام مرة

(١) يعادل مبلغ ٥٠ ألف ريال (نحو ١٩٤ يورو) معاش أربعة أشهر تقريباً لعامل يمني.

أولى وأخيرة! لقد اكتفيت من نزاعات الكبار الذين يعذبون الأطفال! كفى!

جاء حكم القاضي في النهاية لينقذني عندما أعلن:

- تم الحكم بالطلاق!

تم الحكم بالطلاق! لم أصدّق أذنيّ. غريبة هذه الرغبة المفاجئة بالركض والصياح للتعبير عن فرحي! بلغ بي الفرح حدّاً لم أنتبه معه إلى واقع أن القاضي أعلن للتو أنه سيتم إطلاق والدي والمسخ من دون دفع أي جزاء، ومن دون التوقيع على أي وعد بحسن السلوك!

أريد، في هذه اللحظة، أن استمتع كلّياً بحرّيتي المُستعادة. وجدت، بخروجي من القاعة، أن الحشد لا يزال هنا، أكثر ضجيجاً من ذي قبل!

- كلمة للكاميرات، كلمة صغيرة! صرخ أحد الصحافيين.

تدافع الناس من حوله لرؤيتي.. صفّقوا.. طنّت أوركسترا من الـ «مبروك!» في أذنيّ.

سمعت، من ورائي، أحدهم يتمتم أنني ولا شك أصغر مطلقة في العالم.

أخذت حينذاك الهدايا تمطر عليّ. دسّ رجل، وقد تأثر، رزمة من ١٥٠ ألف ريال في يدي! قال إنه يمثل متبرعاً سعودياً. لم ألمس في حياتي كلها هذا الكم من الأوراق النقدية. وصاح الرجل:

- هذه الفتاة بطلة.. تستحق مكافأة!

تحدّث رجل آخر عن عراقية تريد أن تقدّم لي الذهب.

لعلعت ومضات الكاميرات من حولي.. الصحافيون يطوقونني.. نهض أحد أعمامي من بين الحشد وصاح بشدا:

- لقد لطختِ سمعة عائلتنا! لقد لوثتِ شرفنا!

استدارت شدا صوبي وقالت:

- انه يتفوه بالحماقات.

أخذتني من يدي وأشارت إلي بأن أتبعها. لم يعد لديّ في النهاية ما أخشاه من عمّي، بما أنني ربحت! ربحت! أنا مطلّقة! وما من زواج بعد الآن! غريبة هذه الخفّة، هذا الانطباع باستعادة طفولتي دفعة واحدة...

- خالة شدا؟

- نعم يا نجود؟

- أرغب في لعبٍ جديدة! أرغب في تناول الشوكولا والكاتو!

وجاءت ابتسامتها بمثابة جواب.

انها المرة الأولى التي أتلقى فيها الهدايا

٨

عيد الميلاد

هذه هي إذاً السعادة. فمنذ خروجي من المحكمة، منذ بضع ساعات، وأمر مدهش يحصل لي. بمروري، قبل قليل، أمام أحد دكاكين البقالة، فكّرت بقطعة بوظة كبيرة بالكريما، وقلت في نفسي: «أنا على استعداد لتناول واحدة ثانية، وربما ثالثة...» رغبت، لدى رؤيتي هرّاً من بعيد، أن أركض إليه لأداعبه. توهجت عيناي كما لو أنهما تكتشفان للمرة الأولى أقل أشياء الحياة الصغيرة الجميلة؛ أحسست بالسعادة. أنه أجمل يوم في حياتي.

- كيف ترينني، يا شدا؟

- جميلة، جميلة جداً!

قدّمت لي شدا، احتفاء بفوزي، ثياباً جديدة. أحسست، في قميصي القطني الزهري وسروالي الجينز الأزرق المُخفّف اللون والمطرز بالفراشات المتعددة الألوان، بأنني نجود جديدة. وانتابني شعور جميل بشعري الطويل المعقود على شكل عقصة

والمزيّن بشريط أخضر. وبخاصة أنني امتلكت الحق بالتخلّص من حجابي الأسود، وبات في إمكان الجميع، من جراء ذلك، الثناء على تسريحتي.

لدينا موعد في اليمن تايمز مع حامد وبضعة صحافيين. المبنى المؤلف من أربع طبقات له شأنه، ويقف على الباب حارس يراقب حركة الذهاب والإياب؛ إنه أشبه بفيلات الأحياء الراقية في صنعاء التي أحب أن أرسمها. صعدت، مذهولة، الدرجات الرخامية الواحدة تلو الأخرى وأنا ممسكة بالدرابزين الخشبي. ولاحظت أن النوافذ نظيفة لدرجة أن أشعة الشمس تأتي لتنعكس على الجدران البيضاء مشكّلة دوائر صغيرة صفراء. وتفوح في الجو رائحة التشميع الطيبة.

استقبلتني ناديا، مديرة اليمن تايمز، في الطابق الثاني وهي تضمّني بين ذراعيها. لم أفكّر قط في أنه يمكن لامرأة أن تدير صحيفة. كيف يمكن لزوجها أن يقبل بذلك؟ قهقهت ناديا حيال دهشتي وقالت:

- تعالي، اتبعيني.

دفعت ناديا باباً يقع مباشرة خلف مكتبها الكبير المضيء والذي يفتح على غرفة طفل، حيث امتلأت الأرض بوسادات صغيرة اختلطت مع الدمى.

- هذه هي غرفة ابنتي. آتي بها معي أحياناً إلى الصحيفة، وهكذا يمكنني أن أكون في وقت واحد أمّاً وأواصل عملي.

غرفة مخصصة لابنتها! الكون الذي ينفتح عليّ مختلف تمام الاختلاف عن كوني. أكاد أشعر أنني هبطت على كوكب آخر. الأمر مرهب وفاتن معاً.

المفاجآت ليست إلا في بدايتها. عندما دعتني ناديا إلى اللحاق بها إلى ما أسمته «غرفة التحرير»، اكتشفت مدهوشة ان معظم الصحافيين من النساء. بعضهن يرتدين الأسود من الرأس إلى أخمص القدمين. المرّات النادرة التي يرفعن فيها نقابهن هي لدى ارتشاف الشاي. وترتدي أخريات وشاحات برتقالية أو حمراء، يظهر من تحتها بعض خصل الشعر الشقراء مبرزة أعينهن الزرقاء ووجوههن البيضاء كالحليب. أظافرهن طويلة ومطلية. وهؤلاء يتحدثن العربية بلكنة غريبة. لا بد أنهن اجنبيات.. أميركيات أو المانيات؟.. وربما متزوجات من رجال يمنيين. من المؤكد أنهن تابعن دراسات طويلة في الجامعة للوصول إلى هنا. ولا شك في أنهن، على غرار شدا، يقدن سياراتهن الخاصة للمجيء إلى العمل.

تخيلتهن يشربن القهوة ويدخّن السجائر، كما في المسلسلات التلفزيونية. بل أنهن ربما يضعن أحمر الشفاه عندما يخرجن للعشاء في المدينة. إحداهن في عزّ مكالمة هاتفية.. لا بد أنه اتصال مهم جداً. أصغت أذناي وتركت نفسي أتمايل على أنغام لغتها اللطيفة.. أتصور أنها الإنكليزية.. أنا أيضاً سأتحدّث الإنكليزية في يوم من الأيام.

لم أتعب من ملاحظتهن، وقد ذُهلت بصفة خاصة بقدرتهن على التركيز وهن يطبعن على آلات وفي الوقت نفسه لا تفارق أعينهن التلفازات التي تزين كلاً من المكاتب المصنوعة من الخشب الفاتح. العمل وفي الوقت نفسه مشاهدة توم وجيري، يا للمهارة ويا للرفاه!

- نجود، إنها حواسيب! قال عندها حامد وهو يلاحظ دهشتي.

- إنها ماذا؟

- حواسيب! آلات مربوطة بمصفّ أحرف تسمح لك بكتابة مقالات وبعث رسائل. بل إنه يمكنك أن ترتبي فيها الصور.

آلات تسمح ببعث رسائل وترتيب صور... هؤلاء النسوة لا يتمتعن بالكثير من الطلعة البهية فحسب، بل إنهن أيضاً عصريات جداً. حاولت تخيّل نفسي مكانهن بعد عشر أو عشرين سنة، وأظافري مطلية وقلم الحبر بيدي. أرى نفسي بالتأكيد صحافية أو محامية؟ أو ربما الاثنتين معاً؟ أرسل عبر حاسوبي رسائل إلى حامد وشدا. سأعمل جاهدة، هذا مؤكد! سأحصل على مهنة تسمح لي بمساعدة الناس الذين يتعذبون وبتوفير حياة أفضل لهم.

انتهت زيارة المكان في غرفة الاجتماعات، «غرفة الأحداث المهمة»، كما شرحت لي ناديا.

- عافاكِ، يا نجود! صاح صوت رجولي.

- نجود ربحتِ، نجود ربحتِ! تابع عندها عدة أشخاص معاً، في جلبة متواصلة.

ما إن سنح لي أن اجتاز الباب الكبير حتى وجدت نفسي وسط نحو ثلاثين وجهاً محملقاً، وجميعهم يتوجهون صوبي. تردد التصفيق في الصالة، يرافقه الغمز، والابتسامات، والقبلات المتطايرة. قرصت يدي اليمنى لأتأكد من أنني لا أحلم. . نعم، هذا كلّه حقيقي. «الحدث المهم» اليوم، هو أنا بالتأكيد...

أخذت الهدايا تنزل عليّ! قدّم لي حامد أولاً دبّاً موبّراً هائلاً، بحيث يصل إلى كتفي، ويحمل على بطنه المستدير قلباً كبيراً مزيناً برموز لم أتمكن من قراءتها.

- مكتوب I Love You وهي بالإنكليزية وتعني «أحبك».

تحيّرت مع كل هذه الطرود الأخرى التي تأتي إليّ من كل مكان. وفيما شرعت في فك الشرائط الواحد تلو الآخر توالت عليّ المفاجآت: بيانو كهربائي صغير، أقلام تلوين، دفاتر للرسم، دمية «فلّة» مثل تلك الموجودة عن القاضي عبد الواحد.

فتّشت عن الكلمات التي تعبّر عن امتناني، لكنني لم أجد إلا واحدة:

- شكراً!

ووجّهت ابتسامة عريضة للجميع.

دعتني ناديا عندها إلى قص قالب الكاتو، وهو بنكهتي المفضلة، الشوكولا! وقد وضعت عليه خمس شموع حمراء

للزينة. استعدتُ فجأة إحدى الذكريات: ذكرى مغامراتي في جادة الهايل برفقة منى. فكم من مرّة تخيّلت عندها، ووجهي ملتصق بواجهات المحلات، حفلة زفاف مع هدايا وفساتين سهرة؟ لم يحصل الأمر على هذا المنوال.

الواقع أحياناً قاسٍ جداً بالمقارنة مع الحلم. غير أنه يمكنه أن يدّخر أيضاً مفاجآت جميلة.

فهمت اليوم أخيراً معنى كلمة «عيد». ولو أنه حلوى تؤكل لكان بطعم السكّر، مقرقشاً، وربما أيضاً طريّاً بعض الشيء من الداخل، مثل ملبّسي المفضّل بجوز الهند.

- حفلة الطلاق هي في الحقيقة أفضل بكثير من حفلة الزواج.. قلتُ وأنا أحتضن دبي الموبر الكبير بين ذراعي.

سألتني ناديا:

- ماذا يمكننا أن نغني لك بمناسبة هذه الحفلة المميزة جدّا، يا نجود؟

- لا أدري...

تردّدتُ بعض الشيء.

وطرأت فكرة على شدا، واقترحت:

- ماذا لو أنشدنا «عيد ميلاد سعيد»؟

- «عيد ميلاد سعيد»؟ ما هو عيد الميلاد؟ سألت وأنا مندهشة بعض الشيء.

- عيد الميلاد هو عندما تحتفلين بذكرى مولد أحدهم.

- نعم، ولكن توجد مشكلة...

- أي مشكلة؟

- المشكلة هي في أنني... لا أعرف متى وُلدت...

- بالضبط، ابتداءً من اليوم سيكون يوم الاحتفال هذا عيد ميلادك!

واجتاح التصفيق الصالة.

عيد ميلاد سعيد، يا نجود! عيد ميلاد سعيد!

كم رغبت في الضحك. شيء جميل أن يكون المرء سعيداً، إذا كان محاطاً بالمحبين.

في المنتزه مع منى. استعادت ابتسامتها من تحت النقاب

٩

منى

حزيران/ يونيو ٢٠٠٨

بدّل الطلاق حياتي. لم أعد أبكي، والكوابيس التي كانت تراودني أخذت تتضاءل تدريجياً، كما أن كل هذه المحن قد جعلتني صلبة. يحصل، عندما أخرج إلى الشارع، أن تناديني نساء الجوار لتهنئتي وهن يصحن: مبروك! وهي كلمة لوّثتها ذكريات سيئة لكنني أحب سماعها من جديد. نساء لا أعرفهن البتة! أحمر خجلاً، غير أنني أشعر في أعماقي بالفخر الشديد!

أشعر أنني أكثر قوّة. بل أمكنني، وأنا أصيخ دوماً أذني، أن أفهم في شكل متزايد كل هذه الألغاز التي تخيّم على عائلتي، على شقيقاتي وأشقائي؛ وعلى منى بالأخص. الأمر أشبه بقطع لغز معقّد تأخذ مكانها شيئاً فشيئاً...

- انتظرنني، سأرافقكن! صاحت منى وهي تركض في إثر السيارة...

في ذلك اليوم، جاءت إيمان، وهي ناشطة تكافح من أجل حقوق المرأة، لزيارتي في المنزل وبرفقتها صحافية أجنبية. فأنا غادرت، منذ فترة وجيزة، منزل خالي وعدت للعيش عند أهلي. إذ لا وجود في بلادي للملاجئ المخصصة للفتيات ضحايا العنف المنزلي. وفي النهاية، من المفضّل أن يكون المرء في بيته. صحيح أنني لا أزال حاقدة على أبي. غير أن لديه، هو الآخر، أسبابه في الزعل مني. بدا الأمر في الواقع وكأننا نتظاهر بنسيان ما جرى، وهذا أفضل في الوقت الراهن.

انتقل أهلي للتو إلى دارس وهو حيّ آخر يقع على طريق المطار. المنزل صغير ولا يضمّ سوى غرفتين صغيرتين مزينتين بوسائد بسيطة مستندة إلى الجدران. وغالباً ما نستفيق في الليل على هدير الطائرات التي تستعد للهبوط في الجوار. غير أنني أعرف على الأقل أنني أستطيع أن أبقي عينيّ على هيفا لحمايتها. لو أن أحداً يجرؤ على المجيء لطلبها للزواج، فسأعارض ذلك فورا. سأقول: «لا، هذا ممنوع!» وإذا لم يستمع إليّ أحد، سأطلب الشرطة! فأنا أحتفظ في عمق جيبي، وبحرص شديد، بالهاتف الذي قدّمه لي حامد. هاتف جوّال جديد مثل هاتف شدا، يسمح لي بالاتصال به في أي وقت.

شقيقي الأكبر محمّد غير راضٍ. فمنذ جلسة المحكمة وهو غالباً ما يرفع صوته بي وبهيفا. يخاصم والدي وهو يقول له إن كل هذه الجلبة حول عائلتنا ليست جيدة لسمعتنا. أنا متأكدة من أنه غيور. يظهر ذلك من خلال تقطيبات وجهه كلما قرع أحد

الصحافيين بابنا. ولدهشتي، سرعان ما دارت قصتي حول العالم. ففي كل أسبوع يحط صحافيون رحالهم من بلدان تحمل أسماء غريبة مثل فرنسا، إيطاليا، أو... أميركا، من أجلي أنا لاغير!

- إن نجود، بوجود جميع هؤلاء الغرباء الذين يطوفون في الحي، تأخذ في زرع العار حول عائلتنا! صرخ في إيمان لدى وصولها إلينا هذا الصباح.

- هي التي يجب أن تخجل بك! أجابته على الفور.

«عافاكِ يا إيمان»، قال صوتي الصغير. لم يعرف محمد كثيراً بماذا يردّ، فاكتفى بالانزواء في زاوية من زوايا الصالون الرئيسي. واستعجلتُ، قبل أن يعارض خروجي، في وضع وشاحي الأسود وأنا أمسك بهيفا بيدها لترافقني حتى لا تبقى لوحدها في مواجهة غضب محمد. هيفا، محميّتي، لن أتخلّى عنها. وعدتنا إيمان بأخذنا إلى حديقة الألعاب؛ تلك التي لم تطأها قدماي في حياتي. إنه حدث لا يجب تفويته! كنّا قد أصبحنا في السيارة عندما لحقت بنا منى راكضة.

- أمرني محمد بمرافقتكن! قالت لنا وهي تلهث.

بدت منى متضايقة، ولكن مصرّة. قالت إنها لن تسمح لنا بالمغادرة من دونها، وفهمنا أنه من الأفضل الانصياع لأوامر الشقيق الأكبر. دلفت، ونقابها مثبت على وجهها، إلى جانب السائق مباشرة. اعتقدتُ أنني فهمت المناورة الصغيرة، فمحمد المغتاظ قرر ولا شك الانتقام بإرسال شقيقتي للتجسس عليّ.

غير أنني اكتشفت سريعاً أن للمسكينة منى نوايا أخرى في رأسها، أنا بعيدة كل البعد عن تصوّرها...

ما إن أصبحنا على الطريق حتى قالت لنا أنها تريد، قبل الذهاب إلى الحديقة، القيام بانعطافة إلى حيّنا القديم القاع. يا للفكرة الغريبة! هل أوكل إليها محمد مهمة خاصة؟ انتهت إيمان إلى الموافقة وقد أربكها إصرارها. وبعدما تنقلنا من شارع إلى شارع، انتهى بنا المطاف أمام أحد الجوامع.

- توقّف! صرخت منى بالسائق.

لم يسبق لي أن رأيتها على هذا القدر من الاضطراب. توقّفت السيارة فجأة. على الدرج، عند مدخل الجامع، أفلتت يد ممتدة إلى المارة من خمار أسود مجعّد بالكامل، تترصّد أقلّ قطعة نقدية. وفي اليد الأخرى يستند خد فتاة صغيرة نائمة، متلحّفة بثوب ملؤه البقع، وشعرها في حالة فوضى. صرختُ:

- إنها منيرة!

منيرة، ابنة منى، ابنة شقيقتي الصغيرة! لكن ما الذي تفعله هنا بين ذراعي متسوّلة خفية الوجه، ملتفة بالأسود من فوق إلى تحت؟

- منذ أن دخل شقيقي السجن، أصرّت حماتي على حضانة منيرة، تمتمت منى وسط دهشة الجميع.

وتابعتْ:

- تقول إنه من السهل استمالة المارة بوجود ولد...

بقيتُ فاغرة الفاه. منيرة، العروس الصغيرة الرقيقة محكومة بالاستعطاء بين ذراعي حماة عجوز بالأسمال؟ وزوج منى وراء القضبان؟ وماذ بعد؟ إنه هو إذاً الرجل المسجون الذي ألمح إليه أبي في المحكمة... رأيتُ منى على الفور منشغلة جداً في معانقة ابنتها، بعدما انتزعتها من مكان عرضها المحجّب، وليست في وارد أن تقدّم لنا تفسيرات.

- اشتقت إليها كثيراً... سأعيدها لكِ، هذا وعد... وعد. سمعتها تقول للسيدة الملتفة بالأسود قبل أن تدلف من جديد إلى السيارة، وصغيرتها ابنة الثلاث سنوات بين ذراعيها.

عمّت السيارة رائحة الهواء الحبيس. فقد بلغ الاتساخ بمنيرة حداً صعبت معه معرفة لون حذائها.

أغلق باب السيارة وانطلقنا من جديد. وبلغ فرح الصغيرة بلقيانا جميعاً حدّاً أنسانا معه دهشتنا للعثور عليها في ظروف كهذه.

توجّه السائق صوب جنوب غرب المدينة. مررنا في طريقنا بجامع آخر قيد الإنشاء، كأنه قصر بكبره وفخامته. نظرتُ بإعجاب، وقد ألصقت وجهي بالنافذة، إلى المنارات العملاقة الست.

أما الآن فإن قصة منى هي التي تشغل ذهني. وبوصولنا إلى المتنزّه، أخذتْ تفتح قلبها لنا شيئاً فشيئاً...

- إنها قصة طويلة، شرعت تقول وهي تتنهّد، وقد تركت منيرة تذهب للاختباء وراء إحدى الأكمات، وهيفا معها.

اتخذتْ إيمان والصحافية موقعاً لهما قبالتها، وقد جلسن جميعهن القرفصاء في فيء شجرة. استرقتُ السمع.

- سُجن محمد زوجي، قبل أسابيع على زواج نجود... ضُبط في غرفة النوم مع شقيقتي الكبرى جميلة. فمنذ مدة والشكوك تراودني. وجئت، لإراحة ضميري، بأناس ضبطوه بالجرم المشهود. تحوّل الأمر سريعاً إلى معركة، وجاءت الشرطة واعتقلت محمد وجميلة، وهما من يومها يتعفنان في السجن. لا أدري إلى متى...

خفضت منى عينيها، فيما أنا أنظر إليها بدهشة، من دون أن أعرف كثيراً ما أقول. وجدتُ صعوبة في استيعاب خطورة ما تخبره، لكن روايتها تبدو رهيبة. وعندها تمتمتْ إيمان:

- في اليمن، تصل عقوبة الزنى إلى حد الحكم بالموت.

- نعم، أعرف. تابعت منى. وهذا هو بالتأكيد السبب الذي يضغط محمد من أجله اليوم ليجعلني أوقّع ورقة تسمح بـ «تغطية» القضية، من خلال الإيهام بأننا كنا مطلقين قبل توقيفه... أرفض الذهاب لزيارته في السجن، لكنها الرسالة التي مرّرها إلي. لا مجال للتراجع! فهو هذه المرة لن يتخلّص من الورطة! فقد عذّبني بما فيه الكفاية...

لم أَرَ منى قط على هذا القدر من الثرثرة. أخذت يداها،

وهي تتحدّث، تلوّحان، وعيناها تتوهجان ضمن إطار نقابها الذي يخفي باقي وجهها. انقبض قلبي لمجرد سماع صوتها المرتجف. ومع ذلك، أخذتنا جميعنا فجأة قهقهة هستيرية. فمنيرة المقرفصة وراء الأكمة، خلعت للتو سروالها الداخلي، وروى خيط رفيع صاف من الماء العشب الذي أيبسته الشمس.

- منيرة! وبختها منى، وقد استعادت حركات الأمومة وهي ترسم ابتسامة.

غير أن عينيها اكفهرتا من جديد.

- منيرة، ابنتي الحبيبة... أنا محكومة بتربية ولديّ لوحدي، على شرط أن تسمح لي حماتي برؤيتهما. فمحمد لم يكن أبداً والداً صالحاً، كما أنه لم يكن زوجاً صالحاً...

توقّفتْ لبرهة قبل أن تتابع:

- لا بد أنني كنت تقريباً بعمر نجود عندما أجبرتُ على الزواج منه... كنا، عائلتي وأنا، نمضي أياماً سعيدة في خارجي، حتى ذلك «اليوم الأسود» الذي قلب الأوضاع كلها رأساً على عقب...

زمّيتُ عينيّ واقتربت بهدوء لأستمع بشكل أفضل. أعتقد بأنني سمعت أكثر مما فيه الكفاية بالنسبة إلى عمري. غير أنني أريد الآن قطعاً معرفة باقي القصة. إنها شقيقتي في النهاية، وأشعر، ويا للغرابة، أنني مسؤولة عنها.

- كانت أمي قد غادرت للتو إلى صنعاء لتلقي علاج طارئ.

فقد واجهت مشاكل صحية خطيرة، ونصحها الأطباء بمراجعة أخصائي في العاصمة. خرج أبي، كالعادة، للاهتمام بقطيعه، وبقيت وحدي في المنزل مع أشقائي الصغار، ومع نجود التي لم تكن سوى طفلة... اقترب شاب لا أعرفه من المنزل: لا بد وأنه كان في الثلاثين من العمر. أخذ يراودني عن نفسي... حاولت عبثاً طرده، وانتهى به الأمر وقد دفعني إلى الغرفة. قاومت: صحت.. قلت «لا».. لكن...

وتوقّفت.

- عندما عاد أبي، كان قد فات الأوان، فكل شيء حصل بسرعة كبيرة...

لم أصدّق أذنيّ! مسكينة منى، هي أيضاً... هاتان العينان الدائمتا القساوة، هذه النظرة الواهنة بين نوبتيْ ضحك عصبيتين... هذا هو السبب.

- ثارت ثائرة أبي، وسارع إلى جمع محيطنا لفهم ما جرى. اتهم القرويين بالتآمر، غير أن ما من أحد في الجوار أراد أن يفقه شيئاً. علم شيخ القرية بالقضية، فلم يجد أفضل من تزويجنا على عجل قبل أن تنتشر الشائعات السيئة من منزل إلى منزل، ومن وادٍ إلى واد. وذلك إنقاذاً للشرف! قال إنه من الأفضل لفلفة هذه القصة بأسرع ما يمكن. وأنا، لم يسألوني رأيي. ألبسوني فستاناً أزرق، وصرت زوجته بين ليلة وضحاها. في غضون ذلك عادت أمي إلى القرية. رفعت يديها إلى السماء، وحقدت على نفسها لرحيلها. شعر أبي بالعار وأراد الانتقام. قال

إن الخطأ يقع على الجيران، وإن أحداً يضمر له بالتأكيد شرّاً بمهاجمة أحد من نسبه. شعر بأنه تعرض للذل وللخيانة. وفي إحدى الامسيات اجتمعوا كلّهم.. تناقشوا.. ارتفعت حدّة الصوت، وبدأوا يهينون بعضهم بعضاً ويشهرون الجنبيات. بعد فترة قليلة -في المساء أو في اليوم التالي.. لم أعد أذكر - عاد الجيران ومعهم المسدسات. هددونا، وأمرونا بالرحيل بأسرع ما يمكن... أخذ أهلي طريق صنعاء، وذهبت مع زوجي للجوء في مكان آخر على مدى بضعة أسابيع، قبل أن نلتحق أخيراً بالعائلة في العاصمة.

ارتجفتُ من داخلي. الرحيل العاجل إلى صنعاء... غضب والدي... حزن منى واهتمامها المدهش حيالي... هذا هو الأمر إذاً.

- بعد سنوات على ذلك، وعندما أعلن لنا أبي أن نجود ستتزوج، أصابني المرض. لم أتوقف عن التوسل إليه للتفكير، وأنا أقول له إن نجود صغيرة جداً، غير أنه لم يرد أن يصغي. قال إنها ما إن تتزوج حتى تصبح في حماية من الخاطفين ومن الرجال الذين يحومون في الحيّ... وإنه واجه ما يكفي من الهموم بسببي وبسبب جميلة... وعندما اجتمع رجال العائلة لتوقيع عقد الزواج، تحدّثوا أيضاً عن تقديم شقيقة العريس إلى فارس، إذا عاد يوماً ما من السعودية، وذلك في إطار «الشغار»، أي الزواج التبادلي... ليلة الزفاف، لم استطع منع نفسي من البكاء وأنا أشاهد نجود ضائعة في هذا الثوب الكبير جداً عليها.

انها صغيرة جداً! ذرفتُ الكثير من الدمع! بل إنني، وأملاً مني في حمايتها، ذهبت إلى زوجها وجعلته يقسم أمام الله بألا يمسها قبل أن تبلغ سن البلوغ، وبأن يتركها تلعب مع أبناء جيلها من الأولاد. أجابني: «هذا وعد». لكنه نكث بكلامه... إنه مجرم! الرجال جميعهم مجرمون. لا يجب الاستماع إليهم أبداً.. أبدا...

لم أتمكن من حرف نظري عن نقاب منى. كم أحببت، في هذه اللحظة بالذات، أن أراقب أدق أسارير وجهها المخبأ خلف هذه الشبيكة السوداء، وأرى الدموع التي أتخيلها تنساب على خديها. أخجل لشكّي بأنها تحاول التجسس علينا... لو إنني عرفت وحسب! كل هذه الآلام التي قاستها كل هذه السنين من دون أن تحتج.. من دون أن ترفع صوتها.. من دون أن تشتكي.. من دون أن تلجأ تحت جناح يحميها. ومنى، شقيقتي الكبيرة، سجينة قدر أكثر مأساوية من قدري، عالقة في فخ متاهة ملوّثة بالمشاكل. سُرقت منها طفولتها مثلي. غير أنني أدرك في هذه اللحظة أنني، على العكس من منى، تمتعت بالقدرة على التمرّد على قدري وبالحظ في العثور على المساعدة.

- منى! نجود! انظرا إلينا! أنظرا إلينا!

رفعنا رأسينا. كانت هيفا تقهقه ومنيرة الصغيرة جالسة في حضنها على الأرجوحة. نهضت منى، وتَبِعْتُها. الأرجوحة المجاورة فارغة.. قالت لي:

- نجود، ساعديني على الطيران.

جلست منى على الأرجوحة ووقفت وراءها وأنا أضع رجليّ عند جانبي المقعد الخشبي وأتمسك بالحبلين بكلتا يديّ. أخذت أموّج جسمي.. إلى الأمام.. إلى الوراء.. إلى الأمام.. إلى الوراء.. بسرعة أكبر فأكبر.

انطلقت المرجوحة.

- المزيد، يا نجود.. المزيد! تحمّست منى.

الهواء يضرب وجهي بشدة.. يا للطراوة! انطلقت منى في نوبة من الضحك خالية البال. إنها المرة الأولى التي أسمعها فيها تضحك بهذا القدر، وهي المرة الأولى التي نتأرجح فيها معاً! أشعر وكأنني أطوف في الهواء كالريشة. كم هو طيّب طعم البراءة المُستعادة.

- أمي تطير! أمي تطير! صاحت منيرة.

أطلقت منى صرخات فرح صغيرة وهي لا تريد أن تتوقف.

بعد بضع دقائق استسلم وشاحي لضغط الهواء، وللمرة الأولى لا تقضي ردّة فعلي بإعادته فوراً. انسكب شعري على كتفيّ وتماوج مع الهواء، وأحسست بأنني حرّة.. حرّة!

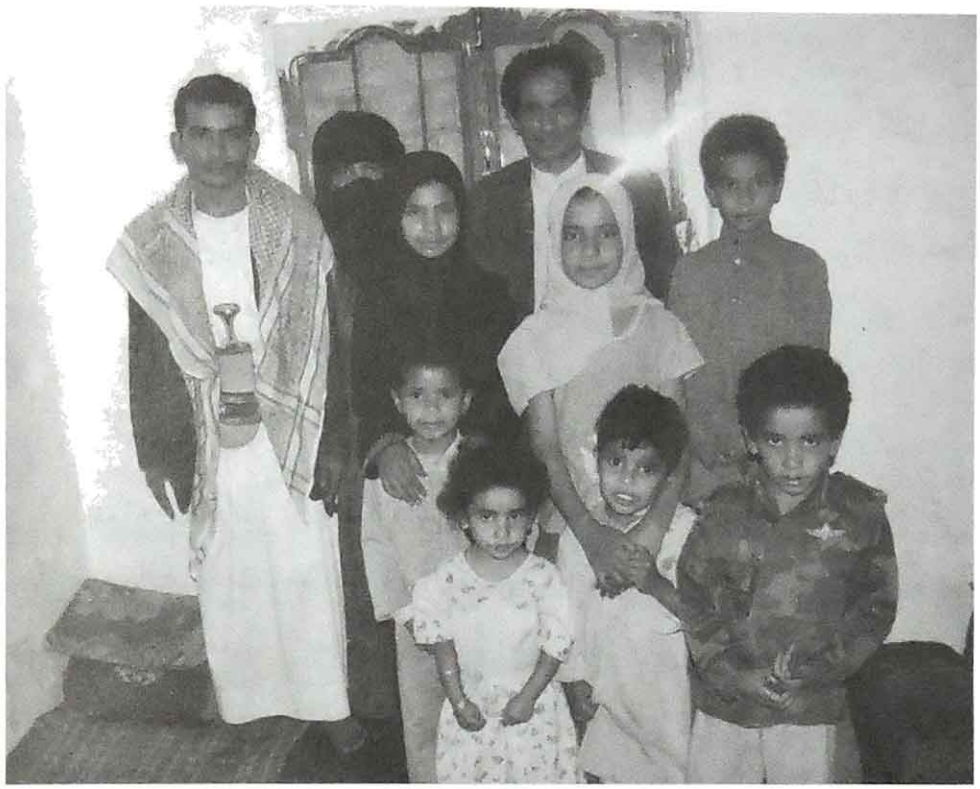

عائلتي (من اليمين إلى اليسار): محمد، أمي، أنا، أبي، هيفا، مراد، أصيل، روضى، خالد، وعبدو

١٠

عودة فارس

آب/ اغسطس ٢٠٠٨

أكلت الـ «بيتزا». حصل هذا منذ بضعة أيام في مطعم معاصر جداً يضع فيه النذلاء قبعة على رؤوسهم ويأخذون الطلبات وهم يصيحون عبر المذياع.

يا للطعم الغريب! فهي تقرقش تحت الأسنان مثل كعكة خبز كبيرة، وعليها الكثير من الأنواع اللذيذة في الأكل: طماطم، ذرة، دجاج، وزيتون. إلى الطاولة المجاورة جلست سيدات بالوشاح تشبهن سيدات اليمن تايمز. إنهن أنيقات ويستخدمن السكين والشوكة لتمرير القطع إلى أفواههن.

حاولت تقليدهن وقطع البيتزا بأدوات مائدتي. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، فقد نثرتها في كل مكان. ولاحظت هيفا، من جانبها، فتاة تفرغ زجاجة عصير الطماطم الحاد فوق طبقها. فأرادت هي الأخرى أن تجرّب. لكن حلقها التهب من أول

قضمة واحمرّت عيناها كلّياً. ومن حسن الحظ أن الأمر انتهى عندما ترك أحد الندلاء مذياعه ليجلب لها قنينة ماء كبيرة!

ومن يومها، أصبح الأمر مثاراً للتسلية بيننا. نتظاهر، عندما نساعد أمي بتحضير الطعام، أننا زبونتان في مطعم البيتزا جئنا لنختار أطبقانا المفضّلة.

- ماذا يمكنني أن أقدّم لك؟ تقول لي هيفا وهي تفرش السفرة في القاعة الرئيسية.

- لنرَ؛ أريد اليوم بيتزا بالجبنة.

وأنا قلت في الواقع «جبنة»، لأنني بعدما فتشت قبل قليل في كيس المؤونة، اكتشفت أن هذا كل ما تبقّى لنا للأكل. بئس الأمر، سنكتفي بها.

- إلى المائدة! أعلنت هيفا، وهي تدعو باقي العائلة إلى الانضمام إلينا.

لكن ما إن شرعنا في وجبتنا المتواضعة حتى دوّى صوت طرق على الباب.

- هل ما زلتِ تنتظرين صحافيين، يا نجود؟ سألني محمد بمظهر المرتاب.

- كلا، ليس اليوم....

- إنها شاحنة المياه إذاً جاءت لملء الخزان. لكنها في العادة تأتي في الصباح...

نهض مقطّباً حاجبيه، وهو لا يزال يمضغ قطعة الخبز. ثم توجّه بخطى سريعة نحو الباب الحديدي. من الذي يمكن أن يأتي لزيارتنا في مثل هذه الساعة وفي عزّ حرّ شهر آب/ أغسطس؟ ففي فترة الحرّ القوي تتم الزيارات في الغالب في نهاية النهار.

لم تتأخّر صرخته في جعلنا كلّنا نجفل.

- فارس! عاد فارس!

أحسست بقواي تخور. فارس، شقيقي المحبوب جداً، الذي لم أره منذ أربعة أعوام. ترنّحتْ والدتي وهي تتجه إلى الباب مستندة بيديها المرتجفتين إلى الجدار. تتبّعنا خطاها، في انطلاقة جماعية، فيما حاولت الصغيرة روضة أن تسبقنا وهي تنزلق من بين أرجلنا. بدا لي ممشانا الصغير، كما لم يحصل من قبل، طويلاً جداً.

بُشرة الشاب الواقف على الباب لوّحتها الشمس، وقد تقعّر خدّاه. كم تغيّر! أصبح طويلاً ونحيلاً. لم يعد فارس المراهق الظاهر في الصورة التي كثيراً ما تأمّلتها في أصغر تفاصيلها مخافة أن أنسى وجهه. بات عليّ الآن أن أرفع نظري عالياً جداً لأتمكن من ملاحظته عن قرب. قَسَتْ نظرته، وارتسم على جبينه، على غرار أبي، بعض الخطوط الداكنة. لقد أصبح رجلاً الآن.

- فارس! فارس! فارس! أنّت والدتي وهي تتعلق بغلالته البيضاء لتضمّه بقوة شديدة.

- اشتقنا إليك كثيراً. قلتُ له وأنا أعانقه بدوري.

لزم فارس الصمت وقد استقام كالرمح. بدا منهكاً.. نظرته فارغة.. ويكاد يكون حزيناً. أين ذهبت تلك الاندفاعة التي كانت تلائمه جيداً؟

- فارس! فارس! كررت روضة كالشخص الآلي، من دون ان تدرك حقيقة أن هذا السيّد الطويل القامة هو شقيقها الأكبر الذي غادرنا عندما كانت طفلة صغيرة.

وهو، منذ الاتصال الهاتفي السريع من السعودية، بعد سنتين على فراره، تركنا من دون أخبار عنه، إلى أن أجرى تلك المكالمة غير المنتظرة في ليلة من ليالي الشهر الماضي. صاحت أمي من الفرح عندما تعرّفت إلى صوته في الطرف الآخر من الخط. وشرعنا عندها في انتزاع الهاتف من أيدي بعضنا البعض، الواحد تلو الآخر، لنتمكن من الاستماع إليه. بدا بعيداً، بعيداً جداً، غير أن قلبي اطمأن لمعرفتي بأنه حيّ.

- أكلّ شيء على ما يرام بالنسبة إليكَ هناك؟ بادر والدي بسؤاله بصوت متهدّج، وهو على وشك البكاء.

أراد أبي أن يعرف كل شيء عن فارس. عند من يعمل؟ أهو مسرور هناك؟ أيكسب عيشه كما يجب؟ وجاء رد شقيقي الوحيد بتكراره مرات عدة السؤال نفسه الذي بدا أنه يستحوذ عليه:

- وأنتم، كيف حالكم؟

وشدد، وهو يتلفّظ بجملته، على عبارة «أنتم»، قبل أن يتابع:

- انشغل بالي كثيراً على عائلتي، فقد سمعت أشياء... أرجوكم، قولوا لي أن كل شيء على ما يرام...

كان قلقاً؛ وهذا مُنتظر. هل يشتبه فارس في شيء؟ قال إن شائعات تسري هناك تتعلق بعائلتنا. هناك في البعيد، في تلك السعودية النائية جداً التي لا أعرف حتى تحديد موقعها على الخارطة. أخبره مسافرون يمنيون أننا واجهنا مشاكل، لكنهم لم يزوّدوه بأي تفاصيل. وفي أحد الأيام، شاهد فارس صورة لي ولأبي في إحدى الصحف المحلّية. فهو بعد سنوات من الهرب من المدرسة - تخلى عن دروسه بنهاية السنة الأولى -، كان عاجزاً عن قراءة المقال التابع لها. ومن حينها لم تتوقف هذه القصة الغامضة عن تشويش ذهنه، إلى درجة أنه لم يعد يتمكن من النوم.

شائعات ينشرها مسافرون... صورة في صحيفة... أخبار طلاقي تجاوزت بالفعل حدود بلادي. وبادر والدي، أمام إلحاح فارس، إلى اختصار مجريات الأشهر الأخيرة.

- ها أنا أفهم الآن بشكل أفضل بعض الشي. أجاب أخي.

- فارس، يا بني، أرجوك عد إلى المنزل! رجته أمي وهي تشهق.

- لا أستطيع، لدي عمل... أجاب قبل أن ينقطع الخط.

استغرقت المكالمة الهاتفية نحو عشر دقائق بما يكفي لإيقاع أمي ثانية في اليأس الكامل. تبدّل مزاجها في الأيام التالية. وأخذت، وهي التي استعادت حبها للحياة منذ طلاقي، تثور من جديد لأي سبب. أرادت رؤية ابنها من جديد، وشمّه، ولمسه. لم يعد في مقدورها رؤية عائلتنا تحت وطأة التهديد الدائم بهروب البعض وخطف البعض الآخر. لماذا يتحامل عليها القدر دوماً؟ أليس من حقها، هي أيضاً، أن تشعر بالقدر اليسير من السعادة على غرار جميع الأمهات؟...

عاودتها الكوابيس وتخيّلتْ أنها لن ترى فارس أبداً بعد اليوم. اعتقدتْ أنه قرر التخلي عن عائلته نهائياً، وانه لم يتصل بنا إلا من باب إراحة الضمير. عاودها الأرق ليلاً. وقد انفطر قلبي لمشاهدتها على هذا النحو. فطلاقي فتح عيني على الكثير من الأمور، وأصبحت الآن أكثر تحسساً لبؤس الآخرين.

وها إن فارسي يعود في هذا النهار الحار والمثقل! أكثر هدوءاً وصمتاً من فارس المطبوع في ذاكرتي. غير أن هذين الحاجبين الكثيفين وهذا الشعر المقصّب هي بالتأكيد لأخي. أريد أن أعرف كل شيء عنه. هل عامله رب عمله جيداً؟ هل اتخذ له أصدقاء جدداً في السعودية؟ ولا بد أنهم يأكلون «بيتزا» لذيذة هناك؟

رفضت أمي تركه، وشدّته من ذراعه إلى الصالون الصغير. ولم يكن فارس، من جهته، كثير الثرثرة. فقد خلع، بحركة بطيئة، حذاءه قبل أن يسترخي على إحدى الوسادات. لم يفارقه

نظري. وبأسرع من البرق، جلبت له أمي كوباً من الشاي سارع إلى تناوله ببضع رشفات.

- هيا، أخبرنا قليلا... أصرّ والدي.

وضع فارس كوبه على السفرة.

- لم أتمكن من توفير أي شيء، في أربع سنين. أنا آسف... لو إنني عرفت وحسب... تمتم وهو يخفض رأسه.

اجتاح الصمت الغرفة من جديد. ثم أخذ وجهه يسترخي رويداً رويداً، راسماً على وجهه ما يشبه الابتسامة.

- أتذكر، يا أبي؟ لقد حقدت عليك في ذلك اليوم، لأنك صحت في وجهي لعودتي خالي الوفاض بعدما ذهبت لاستجداء بعض الخبز من عند الفرّان. فقد تآكلني الخجل، وضقت ذرعاً من ذهابي لتسوّل النقود من هنا وهناك. حلمت بملابس جديدة، مثل جميع الفتيان من عمري. غير أننا بالكاد نملك في المنزل ما نشتري به لنأكل. استفقت في اليوم التالي تخالجني رغبة جنونية بعدم الاعتماد إلا على نفسي. أردت النجاح، وكسب المال بشكل لائق، وأن أشتري لنفسي الملابس التي أريد. ذهبت عندها وقد عاهدت نفسي على ألا أعود إلى هنا إلا في اليوم الذي تمتلئ فيه جيوبي بالمال....

توقف برهة لابتلاع رشفة شاي قبل أن يتابع روايته:

- تحدّث بعض من في الحي من الجيران عن فرصة للعمل في السعودية. يُقال أن في وسع المرء هناك أن يكسب عيشه،

وحتى أن يرسل النقود إلى البلاد لمساعدة عائلته. وهذا ما لزمني بالضبط! أردت تجربة المغامرة، وأنا أزخر طموحاً، فليس لدي ما أخسره... كنت فتياً وطائشاً. لم أتخيل أبداً أن الأمر سيكون على هذا القدر من الصعوبة.

استغرق وصولي إلى السعودية أربعة أيام. أخذت أولاً سيارة أجرة جماعية في اتجاه صعدة، البلدة التي تقع في شمال غرب اليمن، حيث امتلأت الطريق بحواجز التفتيش التابعة للجيش، وهناك أخذت أدرك ان السفرة ستكون طويلة وشاقة. بوصولي إلى صعدة تعرّفت على مهرّب أشخاص عرض تأمين اجتيازي للحدود في مقابل خمسة آلاف ريال[1]. هذا مكلف، لكنني لن أعود أدراجي بعدما وصلت إلى ما وصلت إليه. فهو على الأقل متعوّد على الأمر. قال إنه يعرف الطرق التي يمكن بسلوكها تفادي أن يقبض علينا حرس الحدود. ومن الأفضل ان ألجأ إلى خدماته بما أنني لا أحمل أي بطاقة هوية.

قاطعه أبي:

- لقد قلقنا كثيراً! اعتقدنا أنك اختفيت إلى الأبد.

تابع فارس روايته، وهو غارق في ذكرياته، من دون أن يعير اهتماماً للملاحظة الأبوية.

- اجتزنا الحدود سيراً وفي عزّ الليل، ولم أشعر أبداً بمثل هذا الخوف في حياتي. التقيت خلال الطريق بيمنيين آخرين،

(١) حوالى ٩٩ يورو.

بعضهم أصغر مني سنّاً. وهم، على غراري، لا يعرفون حقيقة ما الذي ينتظرهم في الجانب الآخر، وتستحوذ عليهم فكرة واحدة: الذهاب لجني ثروة. لم أدرك، إلا في سيري في الليل، الخطر الحقيقي الذي أواجهه. ولو عثر عليّ الجنود فسيعيدونني إلى صنعاء...

سرعان ما تبدد ارتياحي بالوصول إلى الجانب الآخر من الحدود بالبلبلة التي تبعته. إلى أين الذهاب؟ إنها المرة الأولى التي تطأ فيها قدماي بلداً غريباً. تابعت السير، وأنا تعب، إلى أن بلغت مشارف مدينة خميس مشيط. يا للخيبة! ليس هذا الجزء من السعودية بأفضل من صنعاء. عرض رجل توجهت إليه ليدلني على الطريق أن أمضي الليل بضيافته، فهو يعيش في قلب الريف مع زوجته وأولاده.

وافقت على الفور عندما عرض علي في اليوم التالي أن يوظّفني، ولم أملك في الحقيقة خياراً آخر. فهو يربي الخراف، وكلّفني بقطيع من ستمئة حيوان أقوده يومياً إلى المرعى بمساعدة راعٍ آخر من أصل سوداني. عملت ١٢ ساعة في اليوم، من السادسة صباحا إلى السادسة مساء. وكنت في المساء أتقاسم مع السوداني غرفة لا تحتوي إلا على فرشتين صغيرتين، في منزل حجري صغير، ضائع في وسط اللامكان. ليس فيها تلفاز، ولا برّاد، ولا مرحاض، ولا مكيف هواء. أصبتُ بالخيبة...

توقّف فارس مرة أخرى ليبتلع ريقه. أخذ صوته يصبح أجش، فلا بدّ وأنه تعب من السفر. وتابع:

- من يومها تتابعت الخيبات. أخذ رب العمل يصبح أكثر تطلّباً في كل يوم. يجب إطعام الحيوانات، وإعطائها الماء، وسوقها إلى الحقول. وأخذت أيام العمل تصبح أكثر فأكثر طولاً. تطلّب الأمر شهراً لأدرك وضعي المتزعزع بعدما حصلت على راتبي الأول: ٢٠٠ ريال سعودي[١] لقاء ثلاثين يوماً من العمل، وهو ما يكفي لدفع ثمن السكاكر في دكان البقالة المجاور... الذي تعود ملكيته، ويا لسخرية القدر، إلى رب عملي!

أعيتني الحيلة. وأدركت، وأنا أجري حساباً سريعاً في رأسي، أن عليّ أن أعمل سنة على الأقل أملاً مني في جمع ما يكفي من المال للعودة إلى صنعاء. لم أملك ما يكفي لأتصل بكم هاتفياً. أضف إلى ذلك أن اعتزازي بالنفس بلغ حدّاً منعني من الاعتراف بفشلي. لم أتصل بكم في المرة الأولى إلا لأوهمكم بأن كل شيء على ما يرام. واتصلت في المرة الثانية، بعد ذلك بسنتين، لأنني كنت قلقاً جداً...

أحنى رأسه، نفخ صدره، وأطلق تنهيدة طويلة.

- لم أتمكن، مع انتهاء المكالمة، من أن أمنع نفسي عن التفكير في دموع أمي عند الطرف الآخر من الخط. أخذ النوم يفارقني ليلاً. أحصيت نقودي فوجدت أنني أمتلك ما يكفي لدفع ثمن عودتي إلى صنعاء. في صباح أحد أيام الأسبوع الماضي، مضيت لمقابلة رب عملي لأودعه. فقد اتخذت قراري؛ وحان وقت عودتي إلى المنزل.

---

(١) حوالى ٣٨ يورو.

- وماذا ستفعل الآن؟ سأله محمد.

- في الحقيقة سأفعل كالآخرين، سأبيع العلكة في الشارع. أجاب بنبرة مستسلمة.

كم تبدّل! ففارس، الطموح فيما مضى، بات مستعداً الآن للانضمام إلى صفوف المنهزمين. وها أنا أرى من جديد، أشبه بتلوين رسم لا يُمحى، نظرته العنيدة لدى تصدّيه لوالدي. أتذكّر حماقاته التي كانت توتّر أعصاب والدي، ولكنها تضحكني كثيراً. لو أنه جاء معنا، في ذلك اليوم، إلى مطعم «البيتزا» لكان أول من صنع طائرات ورقية بمحارم المطعم وقذفها إلى الطاولة المجاورة. لم استجمع، في شهر نيسان/أبريل، القوة للهرب إلى المحكمة إلا بسبب تفكيري باندفاعاته. فهربه هو الذي أمدّني بالشجاعة لأطير بجناحيّ. أشعر وكأنني مدينة له.

فارس مهزوم.. لا.. هذا لا يشبهه. لم أكن لأتصوّر قط أن في وسعه الاستسلام.. أبداً.. أشعر بالغثيان.. عليّ أن أجد يوماً ما الوسيلة لأساعده بدوري. لا أعرف في الحقيقة كيف، لكنني سأجد وسيلة.

عودتي الكبرى إلى المدرسة

١١

عندما سأصبح محامية...

١٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨

يهبّ الهواء على صنعاء. إنه هواء آخر الصيف، الذي يُعلن عودة الأمسيات المنعشة وأولى قطرات المطر. سيصبح في إمكان أشقائي الصغار وشقيقاتي الذهاب من جديد للعب في مستنقعات المياه الصغيرة مع أولاد الحيّ. وعمّا قريب تصفرّ الأشجار، ويعاود باعة الأغطية المتجولون الظهور عند المفترقات.

أما بالنسبة لي، فهذا الهواء هو هواء بدء السنة الدراسية، اللحظة التي انتظرتها طويلاً. صعب عليّ النوم تلك الليلة، وحرصت، قبل أن آوي إلى الفراش، على ملء حقيبة ظهري الجديدة المصنوعة من القماش الكستنائي بالدفاتر الجديدة. تمرّنت على كتابة اسمي على قصاصة من الورق، وكذلك اسم ملاك. وفكّرت كثيراً برفيقة صفّي القديمة. لكن هذه العودة، وللأسف، ستتم من دونها، لأنني تسجلّت في مدرسة جديدة.

شاهدت في نومي دفاتر بيضاء، وأقلام تلوين، والكثيرات من الفتيات، بنات سنّي، من حولي. فقد توقّفت الكوابيس أخيراً منذ بضعة أسابيع. لم أعد استفيق وأنا أتصبب عرقاً، وعيناي دامعتان، وفمي جاف، وأنا أفكر في الباب الذي يصفق والقنديل الذي ينقلب. وأحلم بدلاً من ذلك بالمدرسة. إنها أشبه بأمنية ننطق بها بقوّة أملاً منّا في أن تتحقّق.

عندما فتحت عينيّ هذا الصباح، أحسست أولاً أن قلبي يختلج. ثم نهضت على رؤوس أصابعي لأذهب وأنظّف أسناني وأسرّح شعري. جميع نساء العائلة من حولي لا يزلن نائمات، ممددات بالصف، على الأرض، في الغرفة الصغيرة في المؤخرة. أمكن سماع الذباب يطير في الصالون المجاور، غرفة الرجال. تركت الماء البارد ينزل طويلاً على وجهي قبل أن أرتدي بذتي المدرسية الجديدة: فستان طويل أخضر ووشاح أبيض.

- هيفا، استفيقي، سنتأخّر!

وجدتْ شقيقتي الصغيرة، بشعرها المشعّث ونصف وجهها ملتصق بالمخدة، صعوبة في النهوض من نومها. ساعدتها أمي على ارتداء ملابسها وانتعال حذائها، فيما اندفعتُ نحو الباب أترصّد وصول التاكسي. أضاعت هيفا وشاحها.. بئس الأمر.. ستضع واحداً آخر، مبقّعاً بعض الشيء، سننظفه عند عودتنا وسنبحث عن الآخر. وصل السائق وهو ينتظرنا جالساً وراء

المقود. لقد أوفدته مؤسسة إنسانية دولية تتولى أقساط المدرسة ومصاريف التنقّل.

- هل أنتما جاهزتان؟

- نعم.

- فلنمضِ إذاً!

أخذ قلبي يخفق بشدّة أكبر. وسارعت إلى الإمساك بحقيبتي التي علّقتها باعتزاز على كتفيّ. عانقنا أمي قبل أن نصعد إلى السيارة، وتعلّقت الصغيرة روضة بثوبها وهي تلوّح لنا بيدها مودّعة، قبل أن تنفجر بالضحك. فقد شاهدت للتو قطيعا من الخراف من بعيد. يقع منزلنا الجديد، المحشور في آخر طريق معبّد مسدود، وراء معمل الكوكا كولا وحقل شبه بور، يأتي الرعاة بقطعانهم إليه للرعي مع انبلاج الصباح.

جلسنا، هيفا وأنا، جنباً إلى جنب على المقعد الخلفي، وتبادلنا ابتسامة متواطئة بسماعنا انطلاقة المحرّك. بقينا صامتتين ونحن نعرف أننا في هذه اللحظة فرحتان إلى درجة الجنون وقلقتان. فلطالما انتظرت اليوم الذي يمكنني فيه القيام برسوم جديدة، وتعلّم العربية، والقرآن، والحساب! تعلّمت، حين أُجبرت على ترك المدرسة في شباط/فبراير، العدّ حتى المئة، وأريد الآن تعلّم العدّ إلى المليون!

ألصقت وجهي بالنافذة وألقيت نظرة على السماء الزرقاء.

طرد الهواء، هذا الصباح، الغيوم. وفي الخارج، الشوارع فارغة بشكل مدهش. لم يرفع التجار بعد أبوابهم الحديدية. والجار العجوز، الذي يتأفف كل الوقت لكثرة ما يرى الصحافيين يتعاقبون أمام بابنا، لم يخرج بعد من منزله ليراقبنا من أعلى درجاته. وما من أحد يقف بالصف أمام مخبز الحي الذي لا يزال محكم الإقفال. فهذه السنة، وهذا أمر استثنائي، تتوافق العودة إلى المدرسة مع رمضان. فنصف المدينة لا يزال نائماً.

إنها المرة الأولى التي أصوم فيها، كالكبار، بين صلاة الفجر وصلاة المغرب. لم يكن الأمر، في الأيام الأولى، سهلاً خصوصا بسبب الحر الذي يجفف الحلق ويُشعر بالعطش الشديد. بل أحسست في البداية أنني على وشك الإغماء. غير أنني سرعان ما تعلّمت أن احب شهر التأمل الطويل هذا الذي نعيش خلاله بطريقة مغايرة لعيشنا طوال السنة. فما إن تختفي الشمس، في نهاية بعد الظهر، خلف المنازل، حتى نأكل التمر، وشوربة الشعير، والفلوري وهي كناية عن فطائر صغيرة بالبطاطا واللحم. إنها أطباق خاصة برمضان. ونسهر حتى وقت متأخر جداً من الليل وأحياناً حتى الثالثة فجراً! في الليل، تمتلئ المطاعم حتى الاكتظاظ، وتبقى أنوار نيون محلات الألبسة واللعب مضاءة لساعات طويلة. ويكاد يستحيل المرور في وسط المدينة، في مكان غير بعيد من باب اليمن.

عندما استيقظت للمرة الأولى هذا الصباح، حوالى الساعة الخامسة، لأداء صلاة اليوم الأولى، شكرت الله لأنه لم يتخلّ عني في هذه الأشهر الأخيرة. طلبت منه أن يساعدني في النجاح في سنتي الدراسية الابتدائية الثانية وأن يحفظ صحتي. وصلّيت أيضاً لكي يساعد أبي وأمي على كسب المال ليكف أشقائي عن الذهاب للتسوّل في الشارع، ولكي يستعيد فارس ابتسامته السابقة. لو أن في الإمكان فقط جعل المدرسة إجبارية لجميع الأولاد، فسيمنع هذا اضطرار أمثاله من الصبية إلى الذهاب لبيع العلكة عند الإشارات الحمراء. وفكّرت أيضاً كثيراً بجاد، جدّي، وأنا أقول في نفسي أنني اشتقت إليه، لكن لا بد وأنه فخور بي وهو في عليائه.

ها إن التاكسي يندفع في الجادة الرئيسية، تلك التي تؤدي إلى المطار. وما إن اجتزنا حاجز الجيش[1]، حتى انحرفنا إلى اليمين، ومررنا أمام منازل إسمنتية كثيرة. وقد زُينت أسطحها بالصحون المجوفة اللاقطة. ربما نحصل نحن أيضا، في يوم ما، على التلفزيون. كبس السائق على زرّ يفتح تلقائياً النوافذ الخلفية. وسمعت من البعيد البنات الصغار يغنّين، وكلما تقدمنا كلما اقتربت الانغام منّا.

---

(١) في غضون الأشهر الأخيرة، دفع ازدياد التهديد الذي تشكله المجموعات الإرهابية، بالسلطات إلى زيادة عدد مراكز التفتيش، وبخاصة على الطريق المؤدية إلى المطار.

- ها قد وصلنا. أعلن السائق وهو يتوقّف أمام بوابة حديدية كبيرة سوداء.

بالكاد استغرقت الرحلة خمس دقائق. شعرت بارتعاشة إثارة وتوجّس تخترق جسمي كلّه. وقد أصبح غناء الفتيات الآن قريباً جداً بحيث يمكنني التعرّف على الكلمات، وهي لترنيمة قديمة تعلمتها السنة الماضية. ها هي وراء البوابة مدرستي الجديدة.

- صباح الخير يا نجود!

شدا! يا للمفاجأة! ارتميت بين ذراعيها وأنا احتضنها بقوة. لقد أصرّت على المجيء والمشاركة في هذا اليوم الكبير. لو أنها تعرف كم أشعر بالطمأنينة لالتقائي بوجه مألوف!

يفتح الباب على حوش كبير من الحصى تحيط به عشرات قاعات الصفوف ذات الجدران الفخارية الرمادية، مرتّبة على طابقين. وترتدي جميع الفتيات البذة الرسمية نفسها، الخضراء والبيضاء، التي أرتديها. لا أعرف أحداً وهذا شيء مزعج. عرّفتني شدا على المديرة، نجلا مطري، وهي امرأة محجّبة بالأسود لا أرى منها سوى عينيها.

- كيف حالكِ يا نجود؟

رنة صوتها لطيفة وملأى بالثقة في آن. دعتنا إلى اللحاق بها في مكتبها الموجود في آخر الحوش. يتصدّر إناء أزهار اصطناعية غطاء طاولة الاجتماع الأحمر، فيما تغطي الجدار الرئيسي صورة

كبيرة للرئيس علي عبدالله صالح. ومن خلف أحد المكاتب تطبع إحدى المعلمات على مجموعة مفاتيح الحاسوب. ما إن أُقفل الباب حتى رفعت نجلا مطري النقاب الذي يغطي وجهها. كم هي جميلة! لون عينيها أزرق رمادي، وبشرتها بيضاء بلون الحليب.

- اهلاً وسهلاً بكِ هنا يا نجود. هذه المدرسة هي أشبه ببيت لكِ.

بدأت أسترخي بعض الشيء. وشرحت لنا المديرة أن المؤسسة، التي تُموّل بصفة خاصة من تبرعات سكان الحي، تستقبل في كل سنة حوالى ألف ومئتي طالبة، وأن الصف الواحد يضمّ ما بين أربعين وخمسين طالبة. وأصرّت على أن المعلمات هنا يستمعن إلى الفتيات الصغيرات، وأن من حقهن، إذا دعت الضرورة، ان يأتين لرؤيتهن بعد نهاية الدروس لطرح أسئلة أكثر شخصية عليهن.

أحسست، بعد أن استمعت إليها، بالارتياح النفسي. فقد سبق واعتقدتُ أنني لن أنجح أبداً في العودة إلى المدرسة لأن إحدى المعلمات عارضت في البداية تسجيلي:

- تدركين أنها ليست فتاة كالأخريات... فهي في النهاية أقامت علاقة مع رجل... قد يؤثر هذا في رفيقاتها! قالت لشدا هامسة عندما زرنا المؤسسة.

اضطرت شدا إلى النظر في اقتراحات أخرى، هي في الواقع مغرية جداً ولكن فيها الكثير من المغالاة في نظرها: دراسات في الخارج تمولها منظمة عالمية، أو حتى التسجيل في مدرسة خاصة في صنعاء لكن هل أتناسب فعلاً مع هذا؟ هل أنا على استعداد فعلاً لمغادرة عائلتي، وهيفا على وجه الخصوص؟ كلا، ليس الآن. ليس بعد. وهكذا اخترت مدرسة حي الروضة المجاور. يجب أن يكفوا عن النظر إليّ بإلحاح، ويجب أن يعاملوني كالأخريات، مثل شقيقتي الصغيرة.

- Hiiiiiiiii Nojoud! Oh, you are sooooo cute! (مرحى نجود! أنت ظريفة للغاية!)

حسناً، خاب فألي هذه المرة! فقد ظهرت للتو في وسط الحوش امرأة زرقاء العينين عريضة الكتفين، تضع وشاحاً خبّازي اللون ملقىً بطريقة خرقاء فوق شعرها القصير، وهي تومئ في كل الاتجاهات وقد أحاطت بها التلميذات. تتحدّث بصوت قوي، لكن الكلمات التي تخرج من فمها أشبه بالرطانة. إنها لغة أجنبية ولا شكّ. أين تظن هذه نفسها، أفي حديقة الحيوان أم ماذا؟ شرحت لي شدا أنها تعمل عند «غلامور» وهي مجلة نسائية أميركية كبرى. انتقلتْ إلى اليمن خصيصاً من أجلي! وسيكون عليّ أيضاً أن أروي قصتي أيضاً وأيضاً. ومرّة أخرى، سيتصلّب وجهي عند طرح الأسئلة الشخصية التي تؤلمني دوماً الإجابة عنها، وسيعود الضيق الذي أحاول بمشقة دفنه إلى الظهور في أعماق قلبي...

فجأة دوّى صوت الجرس فأنقذني! أشارت إلينا إحدى المدرسات، نجمية، وهي تحمل قضيباً بيدها، للاصطفاف إلى جانب الجدار، فاستعجلت في الامتثال. ثم دعتنا إلى الجلوس وراء واحد من المكاتب الخشبية الموزعة في القاعة في صفّين. اخترت مكاناً على مقربة من النافذة، ليس في الصف الأمامي ولا في الخلفي. بل في الصف الثالث بالتحديد، إلى جانب رفيقتين لم أحفظ اسميهما بعد. جهدت، وعيناي مسمّرتان إلى اللوح، في أن أفك رموز الحروف التي خطتها المعلمة بالطبشورة البيضاء. «ر-م-ضان ك-ريم». رمضان كريم! استعادت الكلمات أشكالها في ذاكرتي مثل اللغز الذي يُعاد تركيبه، واستعادت خفقات قلبي إيقاعها الطبيعي.

وفيما المدرّسة تشجعنا على تسميع النشيد الوطني، انصرف انتباهي فجأة إلى ضجيج صفحات الدفاتر التي تُقلب. ضجيج المدرسة.. الضجيج الحقيقي للمدرسة وقد استعدته أخيراً.

زاغ فكري للحظة وأعدت التفكير في ما روته المديرة قبل قليل:

- في السنة الماضية، غادرت إحدى تلميذاتنا المدرسة فجأة، من دون إعطاء أي تبرير. اعتقدتُ في البداية أنها ستعود. ثم مرّت الأسابيع، ولم نعرف أبداً أي شيء عنها؛ إلى اليوم الذي، منذ بضعة أشهر، علمت أنه تمّ تزويج الصغيرة وبأنها رُزقت بطفل. انها في الثالثة عشرة!...

حرصت نجلا مطري على الهمس بهذه الكلمات القليلة في أذن شدا لتحاشي أن أسمعها، وهذا ناتج بالتأكيد عن نية طيبة. غير أن ما تجهله، هو هذا المشروع الذي نما في رأسي في الأسابيع الأخيرة: نعم لقد اتخذت قراري.. عندما أكبر سأصبح محامية، مثل شدا، لأدافع عن الفتيات الصغيرات الأخريات مثلي. وإذا أمكنني سأقترح رفع سن الزواج إلى ثمانية عشر عاماً، أو إلى العشرين، أو حتى إلى الاثنين والعشرين! يجب أن أكون قوية ومثابرة. يجب أن أتعلم ألا أخاف من التوجه إلى الرجال وأنا أتطلّع في عيونهم. ثم يتوجّب عليّ أن أجد في يوم من الأيام الشجاعة لأن أقول لأبي إنني لا أتفق معه عندما يقول إن النبي تزوج عائشة وهي في التاسعة من العمر. وسأستعمل مثل شدا حذاء عالي الكعب، ولن أغطي وجهي، فالنقاب خانق! لكن عليّ، قبل أن أصل إلى هناك، أن أتقن واجباتي جيداً. يجب أن أتأكد من أنني تلميذة جيّدة، ليكون لي الأمل في الذهاب إلى الجامعة ودراسة الحقوق. سأصل إلى ذلك بالاجتهاد!

منذ هروبي إلى المحكمة، تتابعت الأحداث بقدر كبير من السرعة لم أستوعب معه كل ما حصل معي. من المؤكد أن ذلك سيتطلّب وقتاً.. وقتاً وصبراً.. كما أن شدا اقترحت عليّ مراراً أن أقصد طبيباً يمكنه، على حد قولها، مساعدتي. إلا أنني كنت، وفي كل مرّة، ألغي الموعد في اللحظة الأخيرة. أَوَليس

من المربك الذهاب إلى طبيب لا نعرفه؟ فانتهتْ إلى التخلّي عن الأمر. صحيح أن الخجل تآكلني في البداية. الخجل والخوف من أن أكون مختلفة عن الآخرين، والانطباع الرهيب بأنني أقل شأناً. لم يسعني إلا أن أعاني من الشعور الغريب بأنني كنت لوحدي في مواجهة المحنة، وبأنني كنت ضحية مجهولة لقصة لا يمكن للآخرين فهمها. منعزلة.. مُستبعَدة.. مُهانة.

غير أنني أدركت في الآونة الأخيرة أن حالتي ليست فريدة من نوعها. يُحكى القليل عن قصص مثل قصتي أو قصة التلميذة ابنة الثالثة عشرة، لكنها موجودة بأكثر مما يمكن تخيّله. قابلتني شدا منذ بضعة أسابيع مع عروى وريم، وهما فتاتان جاءتا، مثلي، تطلبان الطلاق. عندما رأيتهما للمرة الأولى، ضميتهما بقوة إلى صدري، مثل شقيقتين.. هزّتني روايتاهما. فوالد عروى زوّجها بالقوّة، وهي في التاسعة، من رجل يكبرها بخمسة وعشرين عاماً. وقررتْ في صباح أحد الأيام، بعدما سمعت بروايتي من التلفزيون، أن تلجأ إلى المستشفى الأقرب إلى منزلها في قرية جبلة في جنوب صنعاء. أما حياة ريم، وهي في الثانية عشرة، فقد انقلبت إثر طلاق والديها. وزوّجها والدها، انتقاماً، من جار عمره واحد وثلاثون عاماً. وبعد عدة محاولات انتحار، امتلكت ريم الجرأة لقرع باب المحكمة.

شعرتُ بالفخر لمعرفتي بأن قصتي ساعدتهما على إيجاد

السبل للدفاع عن نفسيهما، وأثار بؤسهما مشاعري، وشعرت ببعض المسؤولية عن خيارهما في التمرّد على زوجيهما. والفضل لي في ذهابهما إلى المحكمة. شعرت بالأسى الشديد عليهما، واستمعت إلى عذابهما وكأنه انعكاس لعذابي في المرآة. وقلت في نفسي: «كفى» ليس الزواج إلا لتعاسة الفتيات. لن أتزوج أبداً.. أبداً.. إطلاقا!

أعود تكراراً إلى التفكير في قصة منى، فالحياة لم تبتسم لها أيضاً. ومنذ أسبوع أطلقت شقيقتي الكبرى جميلة من السجن! وبعودتها إلى المنزل، ضميتها بين ذراعيّ. أن أراها من جديد، يا للمفاجأة!

اضطرت هناك إلى تقاسم زنزانتها مع مجرمات، وحتى مع نساء متهمات بقتل أزواجهن! غير أننا تفادينا التحدث في هذه الأمور في المنزل، حتى لا نفسد اللقاء. صحيح أن شمل عائلتنا يلتم للمرة الأولى منذ زمن بعيد. غير أن الخلافات استؤنفت بعد الفرحة، وفي ذاك اليوم تشاجرت شقيقتاي. فقد وافقت منى أخيراً، لإنقاذ جميلة، على التوقيع على الورقة الشهيرة. غير أنه ليس في وسعها ألا أن تحقد عليها. تتهمها بأنها حطّمت عائلتها، ولن تعود الأمور بينهما أبداً إلى سابق عهدها، غير أن ذلك كلّه خطأ الزوج. وأقول لنفسي أحياناً أنه يتوجّب عليّ التحدّث في أحد الأيام إلى فارس وأجعله يتعهد بأن يكون ألطف زوج إذا ما تزوّج يوماً ما.

عبرت طائرة السماء، مخلفة وراءها سحابة طويلة بيضاء، رأيتها تكبر كلما تابعت مسارها. وهي ستهبط قريباً بالتأكيد في المطار المجاور. أهي تأتي ربما من فرنسا، أم من البحرين؟ ثم، أي من البلدين هو الأقرب إلينا؟ يجب أن أسأل شدا. وأنا أيضاً سأطير يوماً ما في السماء وأذهب إلى الطرف الآخر من العالم. يبدو أنه يمكن نقل ما لا يقل عن ثلاثمئة شخص في الطائرة. أخبرني أحد الجيران الآتي من السعودية، أن الداخل يشبه صالوناً كبيراً، يمكن فيه قراءة المجلات وفي الوقت نفسه طلب صواني الطعام. وأضاف أن الجميع، في الطائرة، يأكلون بأدوات مائدة حقيقية، كما في مطعم «البيتزا».

انتهى صوت المدرّسة الحاد إلى انتزاعي من أفكاري:

- من يريد تلاوة السورة الأولى في القرآن؟ سألت وهي تتوجه إلى الصف بكامله.

وفي اندفاعة جريئة، افتقدتها لفترة طويلة جداً، رفعت يدي عالياً جداً، ليتمكن الجميع من رؤيتي. هذا غريب، فهي المرة الأولى التي لا آخذ وقتاً للتفكير قبل الانطلاق. لم أتساءل ما الذي سيفكر به أبي، أو ماذا يمكن للناس أن يخبروه من وراء ظهري. فأنا نجود، ابنة العاشرة، اخترت أن أجيب على السؤال. وهذا الخيار لا يرتبط بأحد آخر.

- نجود. قالت المدرّسة، وهي توجّه نظرها صوبي.

لم تفتها حماستي.

أخذتُ نفساً طويلاً، وقمت عن مقعدي، واستقمت كالرمح. ثم شرعت في سبر ذاكرتي لأنكش منها آيات القرآن التي تعلّمتها في السنة الفائتة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

وعمّ القاعة صمت مهيب.

- عافاكِ يا نجود. وليحمِكِ الله! صفّقت المعلمة، وهي تشجّع الطالبات الأخريات على أن يحذين حذوي.

ثم توجهت بنظرها إلى الطرف الآخر من الصف بحثاً عن مرشحة جديدة.

جلستُ وراء طاولتي والابتسامة تعلو شفتي.

لم أتمكن من الامتناع، وأنا أنظر من حولي، عن إطلاق تنهيدة ارتياح كبيرة. فأنا، ببذتي الخضراء والبيضاء، لست إلا واحدة من خمسين طالبة في صفي. أنا تلميذة في السنة الابتدائية الثانية. دخلت السنة الدراسية للتو مثلي مثل آلاف اليمنيات

الصغيرات الأخريات. وبعودتي بعد ظهر هذا اليوم إلى المنزل، سيكون لدي فروض أقوم بها، ورسوم ألوّنها.

ها إنني أشعر اليوم أخيراً أنني عدت فتاة صغيرة.. فتاة صغيرة عادية.. كالسابق.. وبكل بساطة.

الخاتمة

توزّع نجود الابتسامات وهي ترفل في ثوبها البنفسجي الجميل، وتمسك بيد شدا بقوة. حركاتها خجولة، غير أن نظرتها شديدة التصميم.

- صورة أخرى بعد! صاح المصورون.

في يوم العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٨، حصلت أصغر مطلّقة في العالم، في نيويورك، على جائزة امرأة العام قدّمتها المجلة النسائية الأميركية «غلامور». وهي، وفي سنها العاشرة، تتقاسم هذا التكريس غير المتوقع مع النجمة السينمائية نيكول كيدمان، ووزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس وعضوة مجلس الشيوخ هيلاري كلينتون! وهذا كثير على اليمنية الصغيرة التي انتقلت فجأة من حالة الضحية المجهولة إلى حالة بطلة الأزمنة المعاصرة، والتي، بالرغم من أنها استحقت ذلك عن جدارة، تتطلع اليوم إلى استعادة حياتها الطبيعية.

ربحت نجود، وهي فخورة بذلك. وما لفتني في البداية، عند لقائنا الأول في حزيران/ يونيو ٢٠٠٨، بعد شهرين على طلاقها،

هو ثقتها بالنفس تحديداً[1] كما لو أن معركتها المذهلة جعلتها تكبر دفعة واحدة، وقد سرقت منها بطريقها براءة طفولتها الجميلة.

ويا له من نضوج، عندما اعتنت، في الطرف الآخر من الخط، في أن تدلّني بأدق التفاصيل على الطريق الذي يجب عليّ سلوكه لبلوغ منزلها المتواضع الضائع في متاهة شوارع دارس المغبّرة، عند طرف العاصمة اليمنية صنعاء.

انتظرتني قرب محطة الخدمة المزدحمة بالسيارات، وقد تغطت بوشاح أسود وإلى جانبها شقيقتها الصغيرة هيفا. «سأكون بقرب محل السكاكر»، أنبأتني وقد فضحت شراهة الأولاد الذين في عمرها. عيناها لوزيتا الشكل، ووجهها طفولي، وابتسامتها ملائكية. وهي في الظاهر فتاة صغيرة كالأخريات، تحب السكاكر، وتحلم بامتلاك تلفاز كبير، وتلعب الغميضة مع أشقائها وشقيقاتها. إلا أنها، في قرارة نفسها، سيدة صغيرة حقيقية، كبّرتها المحنة، وتبتسم اليوم وهي تحصد «المبروك» الذي توزعه نساء صنعاء لدى مرورها ما إن يتعرفن عليها.

«طلاق نجود فتح عنوة باباً موصداً»، أسرّت إليّ أخيراً حسنية القادري، مديرة قسم الشؤون النسائية في جامعة صنعاء،

(١) Delphine Minoui, "Nojoud, 10 ans, divorcée au Yémen", le Figaro, 24 juin 2008.

التي تتولى دراسة راهنة تكشف أن أكثر من نصف بنات اليمن يتزوجن قبل سن الثامنة عشرة[١].

نعم، هذا صحيح، فقصة نجود تحمل رسالة أمل. ففي هذا البلد من شبه الجزيرة العربية، حيث يندرج زواج الفتيات الصغيرات في إطار التقاليد التي بدا حتى الآن أن لا رجعة فيها، أعطى فعل الإقدام الرائع هذا الشجاعةَ لارتفاع أصوات صغيرة أخرى ضد أزواجهن. ومنذ مرورها على المحكمة، شرعت فتاتان أخريان، عروى ابنة التاسعة وريم ابنة الاثنتي عشرة، هما أيضاً في الكفاح من أجل فسخ زواجيهما البربريين. بل إن صحيفة سعودية محلّية أفادت أخيراً عن حالة طلب طلاق تقدمت بها فتاة صغيرة في الثامنة، زّوجها والدها رغماً عنها إلى خمسيني، وتنوي إحدى المحاكم النظر فيها. انها سابقة في بلد مجاور صاحب عادات تقليدية مبالغ بها!

سمح فوز نجود أيضاً للاتحادات اليمنية للدفاع عن حقوق المرأة بالضغط على البرلمان على أمل رفع السن القانونية للزواج.

قد لا تدرك نجود الأمر بعد، لكنها حطمت بالفعل أحد

---

(١) Early Marriage in Yemen. A Base Line Story to Combat Early Marriage in Hadramout and Hadeyda Governorates, Sanaa University, 2006. بحسب هذه الدراسة، يشكل الزواج المبكر السبب الرئيسي في نقص التعليم لدى البنات. فسبعون في المئة من نساء اليمن أمّيات.

المحظورات. فخبر طلاقها الذي جاب كل أنحاء الأرض بعدما تناقله الكثير من وسائل الإعلام الدولية، سمح بوضع حد للصمت الذي يخيم على هذه الممارسة الشائعة، ويا للأسف، في بلدان كثيرة أخرى: أفغانستان، مصر، الهند، إيران، مالي، باكستان...

وإذا هي حرّكت فينا المشاعر إلى هذا الحد، فلأنها تعيدنا إلى ذواتنا. من الجيد في الغرب أن نشفق، غريزيّاً، على مصير النساء المسلمات. بيد أن ممارسة الزيجات المبكرة والعنف المنزلي أبعد من أن تكون حكراً على الإسلام. ففي فرنسا، وفي اسبانيا، بل وحتى في إيطاليا، تذكّرنا روايات جدّاتنا بأنهن زّوّجن أيضا وهن يافعات، فيما لا تزال الكثيرات من النساء الشابات يتعرضن لسوء المعاملة من أزواجهن. ولنذكّر أيضاً أن زعيم إحدى الطوائف المورمونية في تكساس، في الولايات المتحدة، وارن جيفس، تعوّد أن يشرف على احتفالات زواج فتيات في الرابعة عشرة، قبل أن يتم في النهاية تفكيك منظمته في ٢٠٠٨.

في اليمن، عدة عوامل تدفع الآباء إلى تزويج بناتهن قبل سن البلوغ. «وللفقر والنقص في التعليم والثقافة المحلية دورها أيضا» تُذكّر حسنيّة القادري. فالأسباب التي يقدّمها الأهل كثيرة ومتنوّعة: شرف العائلة، الخوف من الزنى، تسوية الحسابات بين القبائل المتنافسة... بل إن المثل القبلي في الريف، تضيف

الباحثة، يؤكّد «أن الزواج من فتاة في التاسعة ضمانة لاتحاد سعيد».

المشكلة هي في أن الزيجات المبكرة، بالنسبة إلى الكثيرين تتعلق، ويا للأسف، بالعرف وبالحالة المعهودة. «منذ فترة قريبة، ماتت فتاة في التاسعة زُوّجت من رجل سعودي، بعد ثلاثة أيام على زفافها. افتُرض بأهلها أن يفضحوا الأمر. غير أنهم سارعوا إلى الاعتذار من الزوج، كما لو أن الأمر يتعلّق ببضاعة من نوعية سيّئة، وقدموا له بالمقابل شقيقتها الصغيرة ابنة السبع سنوات»، حسبما روت لي منذ فترة وجيزة ناديا السقّاف رئيسة تحرير اليمن تايمز. غير أن الأكثر تقليدية يرون في تمرّد نجود، الشريف في نظرنا، تصرّفاً شائناً، يُعاقب عليه بحسب الأكثر تطرفاً، بجريمة شرف.

بالرغم من أضواء نيويورك وبريقها، فإن واقع الحياة اليومية لبطلتنا اليمنية الصغيرة أبعد من أن يشبه قصص الجنيات.

عادت نجود، بناء لرغبتها، إلى العيش عند أهلها. غير أن مستقبلها، في الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات، غير واضح. ففي المنزل، ينظر شقيقاها الكبيران بعدم الرضى إلى الاهتمام الدولي الذي أثاره طلاقها. أما الجيران فيشتكون من مجيء وذهاب التلفزيونات الأجنبية. ومن بين الأناس الكثيرين الذين يأتون للتحرّي عن قصتها، هناك من لا يملكون أفضل النوايا. وما يزيد في الطين بلّة أنه تمت تبرئة زوجها السابق.

قطعت عائلة نجود أي علاقة لها معه، ولا يعلم أحد بمكان وجوده.

وشدا نفسها ليست في منأى عن التهديدات. فالمندّدون بها يتهمونها بنشر صورة سلبية عن اليمن. وفي هذا الوقت تعمل المنظمات غير الحكومية، في الريف، على تحسيس أبناء الريف بالمشاكل المرتبطة بالزواج المبكر. وهكذا، ولمراعاة جانب الحساسيات ولحسن التوعية، اضطرت مؤسسة أوكسفام -الأكثر انخراطاً على الإطلاق في هذا المجال - إلى وزن كلامها لدى تنظيمها مشاغل تحسيس في جنوب البلاد. فهي بدلاً من ذكر «السن القانونية للزواج» تفضّل الحديث عن «سن مأمونة»، مركّزة على المخاطر المرتبطة بالزيجات المبكرة: الإصابات النفسية، الوفاة أثناء الولادة، التخلّي عن المدرسة. إلا أن مهمتها تبقى صعبة. «لقد أصبح الكثيرون من زملائنا عرضة لفتاوى أعلنها الشيوخ المحلّيون الذين يتهمونهم بعدم احترام الإسلام وبالتسويق للانحطاط الغربي» أسرّت إليّ سهى باشرين إحدى المسؤولات عن هذا البرنامج. ولا يزال الطريق إلى مستقبل أكثر إشراقاً طويلاً ومتعرّجاً...

لا تتلألأ الأضواء في حي نجود كما في نيويورك. الشتاء بارد، ولا توجد تدفئة. وفي صنعاء، تبقى فساتين السهرة الطويلة خلف الواجهات. ويجب المضي صباحاً لشراء الخبز للعائلة كلها. ووالد نجود لا يزال عاطلاً عن العمل. وعندما لا يتوفّر ما

يكفي من المال للعشاء أو لدفع الإيجار الشهري، يستمر الأشقاء الصغار والشقيقات في الذهاب إلى الشارع لتسوّل بعض النقود.

غير أن المطلّقة الصغيرة عادت إلى المدرسة، بالرغم من كل العوائق. وستسمح لها حقوق التأليف لهذا الكتاب في تمويل دراستها لتصبح محامية، كما تشتهي، وربما لتشيّد سقفاً حامياً لنفسها. وهي، في كل سفرة لي إلى صنعاء، تطلب مني أقلام تلوين. تجلس القرفصاء على أرض صالون عائلتها المتواضع جداً، وترسم دوماً المبنى المتعدد الألوان نفسه والذي يحتوي على الكثير من النوافذ. سألتها، في أحد الأيام، إذا كان هذا منزلاً، أو مدرسة، أو مدرسة داخلية. فأجابتني بابتسامة عريضة: «إنه منزل السعادة.. منزل الفتيات الصغيرات السعيدات».

دلفين مينوي

كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

شكر

نقدم الشكر الجزيل لكل أولئك الذين فتحوا لنا أبوابهم وسمحوا لنا بإعادة تركيب قصة نجود لتصبح مثالاً يُحتذى، ولتتمكن من إعطاء الشجاعة لفتيات أخريات للمطالبة بحقوقهن.

نتوجّه بشكر خاص إلى شدا ناصر، محامية نجود، وكذلك إلى قضاة محكمة صنعاء محمد الغازي، والقاضي عبدو، والقاضي عبد الواحد.

شكراً جزيلاً لكل فريق اليمن تايمز، وبخاصة إلى رئيسة التحرير ناديا عبد العزيز السقاف وإلى صحافيها القديم حامد ثابت الذي يحتل اليوم منصب المستشار السياسي في السفارة الألمانية.

نحن ممتنتان للغاية للباحثة حسنية القادري التي تدير قسم القضايا النسائية في جامعة صنعاء والتي ساعدتنا على أن نقدّر مسألة الزيجات المبكرة حق قدرها.

وشكّلت أيضاً محادثاتنا المتنوعة مع فريق أوكسفام، وبخاصة مع وميض شاكر وسهى باشرين، مساعدة قيّمة.

شكراً إلى نجلا مطري، مديرة مدرسة حي الروضة التي سمحت لنجود بالعودة إلى الدراسة.

ونحرص على التعبير عن امتناننا العميق لإيمان ماشور، التي لولاها لما أبصر هذا الكتاب النور. فالتزامها قضية المرأة اليمنية، وصبرها، ومواهبها في الترجمة شكّلت مساعدة كبرى.

لا حدود لعرفاننا بالجميل تجاه إلين نيكماير التي سمحت لنا بالالتقاء مع بعضنا البعض.

وشكراً من أعماق القلب لبورزو دراغي على دعمه المعنوي وحماسته حيال مشروع هذا الكتاب.

وأخيراً، شكراً لهيام يارد، ومارتين مينوي، وكلوي راديغي اللواتي تلطفن وقبلن أن يكنّ أولى القارئات للكتاب.

هذا الكتاب مهدى إلى عروى وريم وجميع الفتيات اليمنيات الصغيرات اللواتي يحلمن بالحرّية.

دلفين مينوي ونجود علي

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة معارف ومنوّعات

- **موسوعة سين جيم «٢٠ جزءاً»** - شريف العلمي
- **طرابلس عبق الماضي** - **اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام**
- **كتاب المراسم** - صلاح عبوشي
- **غرائب الحيوان** - أسعد عادل سرحال
- **الثورات العلمية العظمى في القرن العشرين** - أنطوان بطرس
- **نباتات الزينة الداخلية والأبصال الزهرية** - مصطفى كمال جُبة
- **الخطة الزرقاء** - إشراف ميشيل غرينون وميشيل باتيس
- **المتعة** - د. شهلا حائري
- **الثورة** - مريم نور
- **بلدات وبلديات لبنان** - بانوراما للخدمات العامة
- **٢٠٠٩ توقعات الفلك** - جاكلين شمعة عقيقي
- **دايفد بيكهام** - دايفد بيكهام
- **مقتل الأميرة ديانا** - نويل بوثم
- **الدالاي لاما** - ميانغ شايا

أنا نجود إبنة العاشرة ومطلّقة - نجود علي بالاشتراك مع دلفين مينوي

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/ ٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com